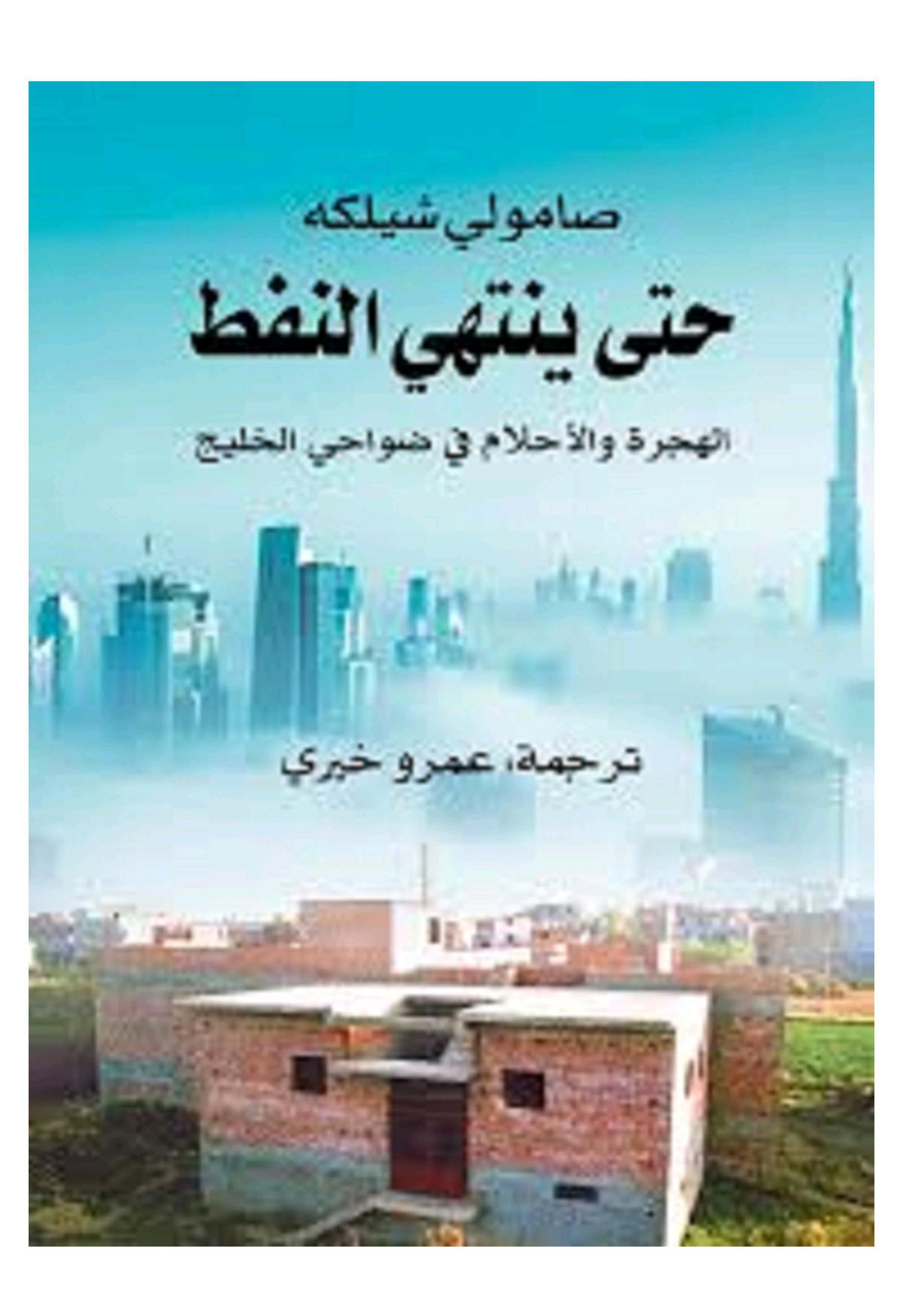

صامولي شيلكه
حتى ينتهي النفط
الهجرة والأحلام في ضواحي الخليج
ترجمة: عمرو خيري

حتى ينتهي النفط

الهجرة والأحلام في ضواحي الخليج

صامولي شيلكه

ترجمة: عمرو خيري

عمرو خيري/ مُترجم مصري يدرس الماجستير في العلوم الاجتماعية في جامعة لوند، السويد. صدر له: "1984"، جورج أورويل 2014؛ "التصحيحات"، جوناثان فرانزن، 2014؛ "البينيلوبية - أو أسطورة بينيلوب وأوديسيوس"، مارجريت آتوود 2014؛ "هتتأخر على الثورة - دفتر يوميات عالم أنثروبولوجي شهد الثورة"، صامولي شيلكه، 2012؛ "الشلالات"، جويس كارول أوتس، 2008؛ "طحالب"، ماري واطسون، 2007.

....

حتى ينتهي النفط

الطبعة الأولى 2017

رقم الإيداع: 25304/2016

الترقيم الدولي:1-007-821-977-978

الناشر

محمد البعلي

اخراج فني

علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

The translation and production of this book were supported by

Leibniz-Zentrum Moderner Orient (ZMO)



elbaaly@gmail. com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات

5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

تمهيد

مشكلة مع الواقع

بينما كنتُ في زيارة قصيرة في عام 2009 إلى عمال مهاجرين مصريين، يعملون في شركة أمن في قطر، جاءني الحلم التالي:

كنتُ في قرية "نزلة الريس" شمالي مصر، خرجتُ أتمشى في الحقول مع صديقي القديم م. وفجأة وصلنا إلى مبنى إداري ضخم وحديث. المبنى المكون من سبعة إلى عشرة طوابق والمشيد بزجاج داكن ومعدن، كان يشغل مربعًا كبيرًا وسط الريف المصري، وفي منتصفه محطة قطار عالي السرعة حديث الصناعة، وكان جديدًا بدور، يأخذك إلى القاهرة في نصف ساعة بدلاً من عن ثلاث ساعات. قلت: "حلو جدًا، دلوقت ممكن آجي من القاهرة لهنا بالقطر السريع، وأتمشى لغاية البلد". قال لي م: إن هذه هي القرية الذكية رقم 2، والمبنية نسخة طبق الأصل من القرية الذكية على مشارف القاهرة (وهو مشروع كبير مرموق مستلهم من مشروعات مشابهة في الخليج، انظر113-112 : Elsheshtawy 2013).

الذهاب إلى مكان مثل الدوحة يجعلك مضطربًا في إحساسك بالواقع. الطريقة التي جمع بها هذا الحلم مشهد الحداثة المفرطة البراقة، والمكان الريفي الذي جاء منه اثنان من أصدقائي ومحادثيني في الدوحة، تعكس على الأرجح ارتباكي الشخصي إزاء الواقع الذي يصادفه العمال المهاجرين الذين أقمت معهم.

في المساء السابق كنتُ ذهبتُ مع توفيق الذي يعمل حارس أمن في بنك في منطقة وسط البلد في الدوحة ،إلى زيارة لصديقنا المشترك عمرو(1) (والاثنان من نزلة الريس) في الاتحاد القطري لكرة القدم، حيث رأيته يحتل كاونتر الاستقبال في المدخل، ويعمل بدوره حارس أمن. المنطقة حول الإستاد

وأكاديمية "أسباير" للرياضة هي واحدة من الفضاءات الأكثر إفراطًا في الحداثة في الدوحة، وإلى جوارها "فيلاجيو"، من مولات المدينة الأبهى والأعظم. فيلاجيو منطقة تحاكي فينيسيا، حيث بُنيت جميع المتاجر على غرار البيوت الإيطالية، لكن وكأنها صُنعت في ديزني لاند. هناك قناة يمكنك أن تنزل فيها بقارب الجوندولا، وهناك منطقة للتزلج على الجليد، والسقف مطلٍ بحيث يحاكي مظهره السماء، أزرق وفيه سحب بيضاء وأضواء مخبوءة. كان مساء الخميس، والمول ممتلئ عن آخره. دخلت مع توفيق لشراء بعض الطعام لنتقاسمه مع عمرو في مكان عمله.

انتاب توفيق شيء من السحر في البداية، وقد أسعده أن يرى الشابات الكثيرات في ثيابهن الجذابة، ثم أحس بالتشتت، وأخيرًا بالانزعاج. قال:

"دلوقت عرفت قد أيه مصر بنت ناس. ده زيف، ده ترومان شو. عمري ما مصر وحشتني زي دلوقت."

شيئان أزعجا توفيق. أولاً كان يكره فيلاجيو مول؛ لأنها استعراض متطرف للإنفاق بإفراط في وجه الاستغلال الذي يواجهه وجميع العمال الآخرين في قطر. توفيق نفسه كان مضطرًا لعدّ كل مليم في راتبه الزهيد. ككل العمال المهاجرين الآخرين الذين قابلتهم، كان حريصًا كل الحرص على الانتباه للأسعار، وكان مستاءً من أي شخص -بمن فيهم القادرين على الإنفاق - ينفق أكثر من الضروري. رأى الإنفاق المفرط مسيئًا إلى وضعه في النظام الطبقي، وإلى هدفه الأساسي من الوجود هنا: ادخار الفلوس لمستقبله.

والآخر، كان توفيق يكره المول؛ لأنه محاكاة شاملة ومتكاملة. مقارنة المول بفيلم "ترومان شو" الهوليودي حيث البطل - ترومان - هو بطل برنامج تلفزيوني لمحاكاة الحياة دون أن يعرف، تعني أن توفيق وصف المول بعالم مصطنع يستحيل فيه أن يجد موطئ قدم للعالم الحقيقي (الذي صرّح بأن مكانه مصر). هذه الملاحظة التي أدلى بها تردد صدى مفهوم اكتسب قدرًا من

الوجاهة في دراسة الخليج العربي: الـ "هايبر-واقع"، أو في ترجمة لفظية ما هو أكثر من الواقع.

الـ هايبر-واقع (Baudrillard 1993; Steiner 2014; Wippel et al. 2014) هو شكل من أشكال المحاكاة، المقنعة لدرجة أن الشيء الأصلي يبدو إلى جوارها أقل واقعية، أو يُهجر تمامًا. في مواجهة مشروعات التعمير والإنشاءات الطموحة شديدة المغالاة في مدن الخليج، والعوالم مكيفة الهواء من الترف ومتعة الاستهلاك، والأبراج المتنافسة في العلو والارتقاء التي ظهرت فجأة على امتداد السواحل على مدار السنوات القليلة الماضية، وما يقترن بهذا من إحساس بالتقدير والإعجاب والراحة والتشتت - الأحاسيس التي تؤدي إليها عادة هذه الفضاءات - فهناك شيء من الوجاهة في مفهوم الـ هايبر-واقع. لو كان توفيق يعرف المفهوم ربما كان ليستخدمه. كما لو كان يعرف بأفكار الباحث الجوغرافي المصري ياسر الشيشتاوي، كان ليوافق معه أن مشروعات "البرستيج" في مدن الخليج هي "استعراض" أو "فُرّجة" (spectacle)؛ بالمعنى أنها تحوّل الناس إلى متفرجين ومستهلكين في حالة شديدة من الاغتراب. وربما كان ليوافق - تمامًا - على مقولة الشيشتاوي بأن في تلك مشروعات "يصبح الزيف فضيلة. . ونموذجًا" (Elsheshtawy 2013: 112).

لكن الأهم؛ أن غضب توفيق من مشهد فيلاجيو مول يذكرنا بأن هناك جانبًا آخر أكثر إظلامًا من هذا الـ هايبر-وقائع في الخليج العربي (انظر أيضًا Elsheshtawy 2010)، لأن دول الخليج تُبنى وتُصان وتُخدم بقوة عمل تعيش في نوع مختلف تمامًا من الواقع. وصف توفيق التناقض بإحالة أخرى للثقافة الشعبوية، هذه المرة إلى رواية الخيال العلمي "يوتوبيا" للكاتب المصري أحمد خالد توفيق (2002)، التي تقدم نسخة كابوسية من مجتمع طبقي للغاية حيث الأثرياء يعيشون في مدينة "يوتوبيا" المعزولة التي تحميها أسوار عالية تفصلها عن التعاسة الشديدة الواقعة على الجانب الآخر: "الدوحة هي كمان يوتوبيا تانية. على الناحية التانية من يوتوبيا، فيه الديستوبيا اللي إحنا

عايشين فيها".

إذا كانت الـ "سبورتس بارك" وفيلاجيو مول أمثلة واضحة على الـ هايبر-واقع اليوتوبي، فإن الحياة اليومية لتوفيق وزملائه ربما كان أفضل وصف لها هي أنها شكل من أشكال الـ هايبو (تحت) واقع. . وجود ديستوبي أقل من الواقع بشكل ما. . حالة كابية من الروتين، تتركز كلها على شيء آخر غير الرقعة المادية الموجودة الآن وهنا التي يحتلوها في الوجود. . حياة من الاحتمال لأجل شيء آخر غير "هذا". إنها وجود تتصدى له اللغة العربية أيضًا بمسمى "الغربة"، الإحساس بالوجود بالخارج في مكان غريب بين غرباء، في انفصال عن الروابط المألوفة وسلامة البيت. أن تعيش في الغربة، بمعنى أن تعيش حياة ليست كاملة بالمعنى الاتصالي relational (الحياة مع الأسرة والأصدقاء والأقارب في الأماكن المألوفة للمرء)، حياة تفتقر إلى ما تجده في "المألوف" من ارتياح. هو مفهوم يتناقض بشكل صارخ مع المفهوم ذي الدلالات الأكثر إيجابية بكثير، مفهوم "السفر"، بمعنى الارتحال والهجرة في الوقت نفسه. إذا كان مفهوم "السفر" مرتبطًا بإمكانية التحرّك، فإن الغربة تعني بالانقطاع عن الحياة الكاملة كنتيجة لهذا التنقل. السفر شيء ربما يسعى إليه المسافر، والغربة شيء على المغترب أن يحتمله.(2)

ما أحاول تتبعه فيما يلي من صفحات: ديناميات الجدل الكامنة في الحلم الضاغط الخاص بالتنقل والتقدم وتجربة الحياة في المهجر، التي لا يشعر بها المهاجر حياة حقًا، وكذلك اضطراب "الإحساس بالزمن temporality" الرابض في مستقبل "متأخر" دائمًا، تنتجه ديناميات الجدل هذه في ظل توفر شروط نظام العمل القمعي. قد يكون الأمر مختلفًا عند من يعملون في مناصب مرتفعة بمرتبات عالية، ولكن في هذا الكتاب أتناول حالة الأغلبية الكبيرة من الطبقة العاملة الذين يعملون في ظروف شديدة الاستغلال. السؤال الملموس الذي أحاول الإجابة عنه هو: ما الذي يفعله كون الإنسان عاملًا مهاجرًا بأحلامه؟

بحثي هنا تشكله لحظتان من الالتباس والمفارقة: أولاهما ديمومة الحركة

الدائرية المؤقتة بطبعها للعمال إلى الخليج ومنه، وأُخراهما كيف تمكّن الهجرة من تحقيق الأشياء وفي الوقت نفسه تضع الضغوط وتجلب الصراعات. بدلاً من النظر إلى قطر أو مصر فقط، أحاول التفكير في العلاقة بين الاثنين في عالم تحولت فيه القرى في شتى أنحاء العالم إلى ضواحٍ للخليج. وكذلك، من حيث التحليل، أحاول المزج بين المتضادات الظاهرة، وأكرس لمقاربة لا تعتمد المقارنة الثنائية، حيث الفلوس والأخلاق، وحيث الخيال والمادية، ليست أقطابًا متضادة، وإنما عوالم متوازية، تتواجد على نفس مستوى الواقع. العمل من أجل الفلوس في الخليج ظرف أخلاقي وروحاني، والخيال مورد نادر.

1- هذه أسماء مستعارة. من أجل حماية من يعملون في الشركة حتى الآن، فأنا لا أذكر الأسماء الحقيقية للأشخاص والشركات ومواقع العمل.

2- أعرب عن امتناني لأحمد سالم الذي ساعدني في فهم الدلالات المتعددة لكلمتي "غربة" و"سفر".

الفصل الأول: السفر إلى الدوحة

في عام 2007 ثم 2008 على التوالي، ذهب عمرو وتوفيق – وهما صديقان من قرية نزلة الريس في مصر – إلى قطر للعمل حراس أمن بعقد لمدة عامين. كلاهما من عائلة ريفية فقيرة نسبيًا. تخرجا في التعليم العالي ولديهما طموحات عالية، لكن مواردهما لا تكفي إلا لشغل وظائف قطاع عام متدنية الأجور في مصر. وتصادف أنهما من المحبين للأدب والكتابة: توفيق يكتب الشعر، وعمرو يكتب القصة القصيرة.

كان توفيق يبلغ من العمر 23 عامًا عندما سافر إلى قطر. كان يحلم بالهجرة منذ فترة. كان بحاجة للفلوس، وأيضًا يتوق ليرى العالم وأن يصبح رجلاً حرًا. كان يريد أصلاً إما الذهاب للولايات المتحدة أو لغرب أوروبا، لكن مسار هذه البلدان لم يكن متاحًا له (وأحجم عن المخاطرة بعبور البحر المتوسط في قارب صيد)، لذا استقر به المقام على عقد في الدوحة في قطر، على أمل أن تكون خطوة على الطريق إلى آفاق أبعد، وربما إلى أوروبا أو أمريكا. العمل كحارس أمن كان مصادفة بحتة: صديقه عمرو أكبر منه ببضع سنوات، وكان بحاجة لادخار الفلوس لزواجه، وقد جاءه عقد عمل كحارس أمن قبل شهور، فتبعه توفيق. يعتبر الهجرة في قريتهما ومثلها في قرى كثيرة من أهم وسائل كسب المال، وقد هاجر قبلهما أجيال من شباب القرية إلى العراق والسعودية وأوربا، ولكن خطة الخليج تعتبر الأكثر احتمالاً عند شباب القرية لتحقيق الثروة السريعة.

كان توفيق قد سبق وشارك في بعض أبحاثي الإثنوجرافية حول شهر رمضان، وحول الملل، وحول أحلام الهجرة (Schielke 2015; Swarowsky and Schielke 2009). عندما غادر إلى قطر، كنت أريد أن أرى واقع العامل المهاجر بالنسبة لشاب كان أكبر أحلامه أن يغادر مصر ويعيش حياة الحرية والرفاهية.

كان بحثي الميداني في الدوحة قصيرًا، وقد أمضيت المدة كاملة تقريبًا بين العمال في شركة أمن. لم يكن لي أي اتصال من أي نوع بقطريين، واتصال

محدود جدًا مع الأشخاص المنتمين إلى طبقة العمال المهاجرين من أصحاب الرواتب الجيدة (انظر Vora 2013; Kanna 2010). بصفتي صديق وضيف على اثنين من العمال، وبمعرفتي بالعامية المصرية، سرعان ما رحب بي العمال المصريون في الشركة. وبعد ذلك بقليل تعرفت على بعض العمال الآخرين من نيبال، الذين يتقنون الإنجليزية بفضل خبرتهم السابقة بالعمل في قطاع السياحة في نيبال. العمال (حراس ومشرفون تدرجوا في الوظيفة منذ كانوا حراسًا) كانوا غير راضين بالمرة عن ظروفهم المعيشية وقوانين العمل ورواتبهم والشركة التي يعملون لصالحها. كانوا حريصين كل الحرص على الحديث عن تجربتهم معي. في مناسبات عدة أعربوا عن أملهم في مساهمتي في أن يعرف العالم بالظروف الصعبة التي يعيشون فيها. تمكنت من التحرك بحرية وبسهولة بين مختلف مساكن الشركة والبنوك ومواقع عمل أخرى (حجرات الكنترول فقط والمواقع ذات الحراسة الأمنية المشددة هي التي لم أتمكن من دخولها)، وطالما أنني في صحبة الحراس يمكنني استخدام وسائل مواصلات الشركة. على قدر علمي، لم يعرف مدراء الشركة بأن هناك باحث أنثروبولوجيا يعمل مع الحراس.

على مدار السنوات التالية، ظلّلتُ على اتصال بتوفيق وعمرو بشكل منتظم، وعلى اتصال ببعض زملائهما من الحين للآخر. تبين أنه من المفيد الانتظار عدة سنوات حتى أرى حياتهم وتوقعاتهم تتطور وتتغير مع عودتهم إلى مصر في عام 2010. الهجرة للعمل متصلة بالأفق البعيد للأحلام، وبمسارات الحياة، وبتوقعات المستقبل، وتؤثر عليها أيضًا على المدى البعيد.

وبعد الانتهاء من الكتابة عرضت مسودة الكتاب إلى توفيق وعمرو واستفدت من تعليقاتهما وكذلك اقتراحاتهما للتعديل والتصحيح في بعض النقاط. في الحقيقة معظم الأفكار التي أقدمها في هذا الكتاب مستعارة ممن قابلتهم في فترة البحث، ولهم كل الشكر والتقدير في ذلك. أما ما هناك من الأخطاء في هذا الكتاب فأعتبرها مسؤوليتي الخاصة.

الفصل الثاني: حراسة البنك

كان توفيق وعمرو وأغلب زملائهما يعملون كحراس أمن لصالح فرع قطري لشركة أمنية دولية كبرى. كُلفوا بالعمل لمدد مختلفة في مواقع عمل عدة، مثل البنوك والحدائق والبنايات العامة والمطار. أمضيت أغلب فترة بحثي مع حراس يعملون في بنكين في شارع حمد الكبير قرب قلب الدوحة القديمة.(3)

كان الحراس في الأغلب من الشباب العُزاب، وكان هدف المصريين منهم على الأقل هو ادخار الفلوس للزواج. كان كبار الحراس والمشرفون يعملون لصالح الشركة منذ أكثر من خمس سنوات، ولديهم عائلات في بلدهم الأصلي. وكانت الشركة توظف أشخاصًا من عدة بلدان، منها مصر ونيبال وسريلانكا والهند وتايلاند والسودان.

أما شركة الأمن التي تملكها جزئيًا شركة أم مقرها غرب أوروبا وجزئيًا مستثمرون قطريون، فهي تبيع خدماتها لعملاء مثل البنوك والمؤسسات الحكومية. في عام 2009 كان بنك أوشينيا (ليس اسم البنك الحقيقي) الذي يعمل فيه توفيق يمنح شركة الأمن 3500 ريال قطري في الشهر عن كل حارس يعمل في وردية 12 ساعة سبعة أيام في الأسبوع. نصيبه من هذه النقود كان 1100 ريال كراتب (ما كان يساوي 1780 جنيه مصري أو225 يورو في ذلك الزمن)، بالإضافة إلى المسكن والمواصلات، مخصومًا منه إكرامية مكتب الاستقدام للعمل والتأشيرة التي تبلغ كلفتها 6000 ريال تُدفع مرة واحدة. كما كان البنك يدفع للحراس مباشرة رسومًا شهرية بمقدار 250 ريالاً، ما جعل بنك أوشينيا محبوبًا للحراس.

كان عملهم جزءًا من شبكة معقدة من التجارة العالمية في الطاقة والخدمات والعمل والأموال. نالوا عقودهم من خلال مكاتب إلحاق العمال بالخارج في بلدانهم. عملوا في شركة دولية باعت خدماتها لمؤسسات مالية تتربح بدورها من تقديم خدمات إدارة وإعادة الاستثمار في عوائد النفط والغاز التي تدخل

إلى خزينة الدولة القطرية. عملهم ينظمه نظام عمل خاص بدول الخليج العربي، ويعطي أصحاب العمل سلطة تكاد تكون مطلقة على الموظفين. هو نظام يمنح عوائد جيدة للمستثمرين من شتى أنحاء العالم. إذا كنت تستثمر مدخراتك في أسهم شركات متعددة الجنسيات، فأنت إذن من المستفيدين من هذا النظام.

عمل الحارس ممل للغاية. العمل في بنك أوشينيا على سبيل المثال يتكون من الوقوف عند مكتب الاستقبال، عند مدخل الموظفين، وحراسة المدخل المفضي إلى منطقة انتظار السيارات، وكذلك منطقة خدمة العملاء من عند مدخل العملاء أثناء ساعات عمل البنك، والعمل بحجرة الكنترول حيث توجد الشاشات التي تعرض ما تسجله كاميرات الدائرة التلفزيونية المغلقة، والاحتفاظ بالأبواب مفتوحة أمام مدير البنك عند وصوله للعمل في الصباح. الوقوف عند مكتب الاستقبال أو خدمة العملاء من بين المهام الأكثر شعبية في أوساط العمال؛ لأنه العمل الأقل مللاً والأقل وحدة. مقارنة بحراسة مدخل الجراج أو الجلوس في حجرة الكنترول، فمكتب الاستقبال فيه أحداث أكثر، وأشخاص تتحدث معهم.

لم يكن العمل شاقًا، إلا عند الاضطرار للعمل خارج المبنى في طقس الخليج القائظ. وصف الحراس علاقتهم بموظفي البنك بأنها محترمة، بل وودودة حتى. عندما يغلق البنك أبوابه يُسمح للحراس بالتدخين داخل المبنى. لكن العمل ممل وليس فيه أي تنويعات، ومدة الوردية 12 ساعة، والراتب الذي تدفعه الشركة ضئيل.

رغم أن العمل لم يكن صعبًا، كان الرجال يشعرون باستنفاد طاقتهم. كان توفيق يعاني من اضطرابات النوم، وفقد بعض وزنه. علي زميله كان يعمل في موقع مختلف، لكن يعيش في نفس المسكن. قال:

"لما بتشتغل وردية 12 ساعة مش بتلاقي وقت ولا طاقة. لما بآجي من الشغل

بـآكل، وأستحمى، وأصلي العشاء، وبعدين بأحس إني تعبان مش قادر على حاجة إلا النوم. والساعة أربعة ونص يرن المنبه وتصحى. الوردية الـ 12 ساعة مش بتسيب لك لا وقت ولا طاقة عشان تراعي أي حاجة تانية".

للحـراس يـوم راحـة أسـبوعية واحـد، لكنهم يعملون على مدار أيام الأسبوع السبعة لأن يوم الراحة غير مدفوع الأجر، في حين أن العمل في العطلات يعني فلوسًا إضافية. حتى العمل السهل غير المتطلب يرهق الإنسان عندما يكون لمدة 12 ساعة كل يوم، شهرًا وراء شهر، عامًا وراء عام. لكن العمل متعب لأسباب أخرى أيضًا بخلاف المدة. فأغلب الحراس وجدوا أنه لا جدوى هنالك بالمرة من عملهم، وكانوا يشعرون بالسأم وبالافتقار للدافع للعمل. والأهم، أنهم وبلا استثناء كانوا غير راضين بالمرة عن أجرهم وعن شروط عقودهم. أحسوا بأنهم يعملون بلا طائل.

على الجانب الآخر من الشارع، أمام بنك أوشينيا، يوجد بنك إيستاسيا (ليس بدوره الاسم الحقيقي للبنك)، الذي يعرف توفيق العديد من حراسه؛ لأنهم كانوا يتنقلـون كثيـرًا بيـن موقعـي العمـل هـذين. العـديد من أصدقاء توفيق كانوا يعملون هناك: سيف وجرجس وحمزة، وهم مصريون، ولوكراج، النيبالي. ذات مرة عندما عبرنا الشارع للحديث أو لتناول الغداء، قال لي توفيق مازحًا أنني: "بقيت صاحب السيكيوريتي". رددت عليـه: "فعلاً. أنا بأقضي وقتي هنا مع حـراس الأمـن، لكـن الأمـن مـش مشكلة هنا خالص". توفيق: "عشان محدش مهموم فعلاً بالأمن. إحنا هنا فُرجة. ملناش لازمة".

لم أسمع مطلقًا بأي حالات حيث تعرض أي من الحراس في مختلف المواقع لأي خطر من أي نوع. الحدث الأكثر دراماتيكية الذي سمعت به يخص موظفين اثنين من بنك تم العثور عليهما يمارسان الجنس في مصعد بعد انتهاء ساعات العمل. قطر مكان آمن، والعمل الأمني الأهم والأكثر جدية مرتبط بالسيطرة على العمال المهاجرين، وهذا العمل تؤديه شركة أخرى، وتؤديه الشرطة. (4)

وفي بنك إيستاسيا كان حمزة – على النقيض من توفيق – متحمس ويعمل بجدية. كان يستمتع بعمله، لكنه يغضبه أيضًا. خلال فترة قصيرة ارتقى في البنك ليحصل على موقع مسؤولية. كان مسؤولاً عن حجرة الكنترول، وقال إنه في واقع الأمر يؤدي قدرًا كبيرًا من مهام عمل مديره. مديره، وهو رجل قطري، لم يكن يعمل كثيرًا، ويفوض للحراس مسؤوليات عمله، ومنها الأمور المهمة مثل إعطائهم كلمات السر. الجانب المشرق من هذا الأمر، على حد قول حمزة، هو أنه وفر له عملاً أكثر أهمية وقدرًا أعلى من المسؤولية، حيث يمكنه تعلم شيء جديد، وأنه أصبح يملك بعض السلطة على موظفي البنك. لكنه أشار أيضًا لأنه حارس يعمل لصالح شركة تعطيه النذر اليسير من الراتب الذي تعطيه للموظفين القطريين. قال حمزة:

"كل الموظفين القطريين كده: يناموا ويدوا الشغل للعمال المهاجرين، مصريين وهنود ونيباليين، اللي بياخدوا جزء صغير من الفلوس اللي المفروض ياخدوها ع الشغل ده. كده حرام. حرام لدرجة إن كلمة حرام مبتكفيش".

قال زميل حمزة النيبالي – لوكراج – إن حمزة ينظر إلى عمله بجدية مبالغ فيها. لكنه وافقه على أن الأجر غير مناسب بالمرة. كان لوكراج يعمل في نيبال مرشدًا سياحيًا (ولهذا يتحدث الإنجليزية بطلاقة). عنده زوجة وثلاثة أطفال في نيبال. وهو مرشد سياحي، على حد قوله، كان يمكنه أن يربح في الموسم مقدار ما يربحه هنا، لكن فقط أثناء الموسم السياحي، ولهذا ذهب إلى قطر. ولكن هذا المزيج من الأجر الرديء وكلفة المعيشة المرتفعة والافتقار للحقوق جعلت من الصعب عليه ادخار النقود:

"نحن الحراس نتقاضى جميعًا نفس الراتب (1100 ﷼)، لكن الحياة باهظة هنا. كبار الموظفين في البنك يربحون 200 ألف ﷼ ويشترون طعامهم من نفس السوبرماركت الذي نذهب إليه. والمشكلة أن لا حقوق لأحد هنا. إذا ذهبت للمحكمة لأطالب بحقوقي، فسوف يرمونني خارج البلاد. لا يمكنني تغيير الكفيل لكي أعمل في وظيفة أخرى. هناك شركات أمن أخرى تدفع 3000 ﷼،

لكن ليس مسموحًا لي بالتغيير".

الكفيل؛ هو الشخصية الرئيسية المهيمنة على مصير الحراس. في كل دول الخليج، مطلوب من غير المواطنين أن يكون لهم كفيل مواطن، هو ولي أمرهم القانوني أثناء إقامتهم. (5) الشخص الخاضع للكفالة ليس شخصًا ذو أهلية قانونية كاملة. دون موافقة الكفيل، لا يمكن للعامل شراء سيارة أو الزواج أو مغادرة البلاد أو تولي وظيفة أخرى. معاملة العمال في نظام الكفالة كانت سببًا لانتقادات كثيرة من منظمات حقوق الإنسان والإعلام الدولي (Motaparthy 2014; Karlsson 2014). على مدار سنوات – ومؤخرًا كرد فعل على الاهتمام المنصب على كأس العالم 2022، راحت قطر تعد بأنها إما ستلغي نظام الكفالة أو أنه سيصبح للعمال حرية تغيير الكفيل (Guardian 2015). لكن قطر ودول الخليج الأخرى تعتمد في كل حال من الأحوال حتى بعد إلغاء الكفالة على قوانين تضمن تدني الأجور وتحد من حرية العمال في التنقل ومطلبة حقوقهم(6). هناك شركات أمن أخرى في قطر تدفع رواتب أفضل إلى حد بعيد، لكن كفيل العمال في الشركة الذين أقمت معهم (وهو عضو رفيع المستوى في الأسرة الحاكمة يكفل عشرات الآلاف من العمال) يرفض بشكل دائم أي طلبات من العمال بتغيير مكان العمل أو النقل إلى كفيل آخر. هذا أمر مربح جدًّا للشركة: إذ يمكن أن يدفع أجورًا متدنية مع تيقن الشركة من أن عمالها – وهم دائمًا ما يتم استقدامهم للعمل من أماكن مثل مصر ونيبال وتايلاند وليس داخل قطر أبدًا– لن يتركوها أبدًا إلى شركات أخرى تدفع أفضل.

بالإضافة إلى التعرض لسلطة الكفيل المطلقة، فإن العمال محظور عليهم – أيضًا– بموجب القانون وبموجب العقد تكوين نقابات أو تنظيم إضرابات. ليس أمام العمال أي سبيل قانوني واقعي للمطالبة بالرواتب غير المدفوعة، ولهذا كثيرًا ما تترك الشركات عمالها بدون أجر لشهور. الشركة التي كان يعمل بها أصدقائي تعتبر دقيقة في دفع الأجور. فالرواتب تصلهم في حدود تأخير أسبوع واحد. العقاب على أية محاولات لمقاومة نظام العمل بسيطة.

المخالفون "يتكنسلوا"، أي تُلغى عقودهم وتأشيراتهم ويتم ترحيلهم. بالنسبة للعمال فهذا عقاب قاس؛ لأنه يعني فقدان الدخل الذي جاءوا لأجله إلى قطر أساسًا. إنه نظام مجهز من أجل تحقيق أقصى استغلال ممكن، وهو يعمل جيدًا.

بالتبعية، تجني الشركة نقودًا جيدة من تشغيلها لقوة عملها، في حين ينتهي المطاف بعمالها بأن يدخروا ما يكفي بالكاد لتشجيعهم على الاستمرار في العمل، لكنه دخل أقل مما كانوا يتوقعون. وليس بإمكانهم شيء حيال هذا، إلا ترك العمل والعودة للوطن. وكما أوضح أحد المشرفين، فالحراس ليسوا حتى الفئة الأكثر عرضة للاستغلال: "فيه ناس هنا بتشتغل بخمسميت ريال. الخدامات وعمال النضافة مثلاً. دي فلوس قليلة قوي، متكفيش أي حاجة".

لم يكابد الجميع من هذا الظرف بنفس مقدار معاناة الآخرين. عمرو كان يتمتع بعمله في اتحاد كرة القدم (حيث كان محظوظًا بما يكفي لأن يعمل وردية 8 ساعات بدلاً من 12 ساعة)، وله علاقات جيدة بالناس في مكان عمله، وبعد عودته يتذكر سنوات عمله في قطر معتبرًا إياها أوقاتًا طيبة. لم يكن سعيدًا براتبه، واضطر للبقاء في قطر عامًا أكثر مما خطط له لكي يفي باحتياجاته، لكن في النهاية تمكن من ادخار المبلغ الكافي للعودة إلى مصر والزواج في عام 2010. توفيق على النقيض، أحس بالحسرة والغضب والاكتئاب. ادخر نقودًا قليلة، لم يشعر معها بأنها ستحدث فارقًا يُذكر. كان في حالة سيئة بدنيًا وذهنيًا، مثله مثل كثيرين قابلتهم. يجهده ويثير توتره الروتين الشديد والرتابة، والضغوط على الراتب المتدني التي جعلت المسألة كلها غير مجدية، والغضب على الظلم الذي يتعرض له، وإحساس قوي بالغربة والحنين للوطن بسبب المعيشة في عالم أقل من حقيقي يقدم دخلاً أقل من حقيقي مقارنة بما يحتاجه.

3- في عام 2009 كان شارع حمد الكبير هو المركز المالي للدوحة، لكن العديد من البنوك وقتها كانت على وشك نقل مقراتها إلى منطقة مالية جديدة تحت

الإنشاء، على مسافة كيلومترين.

4- في هذا الشأن، يحتل حراس الأمن موقعًا محيرًا في نظام العمل. فهم يخضعون لنفس النظام الاستغلالي، لكنهم أيضًا جزء من النظام الذي يحافظ على الامتيازات وأوجه عدم المساواة والحكم السلطوي. الناس الذين أقمت عندهم في قطر لم يكونوا ضالعين في هذه المهام، لكن العديد من العمال المهاجرين يكسبون دخلهم من السيطرة الشرطية على المهاجرين الآخرين. في دول الخليج التي واجهت احتجاجات كبرى من المواطنين مثل البحرين والسعودية، قمعت قوات الأمن بغلاظة هذه الحركات الاحتجاجية، وكانت قوة الشرطة مكونة في الأغلب من عمال مهاجرين. حول دور السكان المهاجرين في النظم السلطوية بالخليج، انظر Davidson 2014; Hanieh 2011.

5- أجرت البحرين وإمارة دبي بعض الاستثناءات على هذا النظام، مثل السماح للحكومة بتولي دور الكفيل مباشرة، والسماح بالاستثمارات الأجنبية المباشرة (جزء من نظام الكفالة هو ضرورة أن يكون للمستثمر الأجنبي شريك من المواطنين يملك 51% من المشروع المشترك)، لكن يبدو أن ليس من دول الخليج دولة مهتمة بالقضاء على نظام الكفالة. انظر Davidson 2014; Mednicof 2013.

6- للمزيد عن دخل العمال متدني الأجور وظروف عملهم في قطر، انظر Gardner 2011: 9. .

الفصل الثالث: دائرة ضيقة

كانت حياة الحراس تدور غالبًا في دائرة ضيقة، بين مواقع العمل، والمسكن الذي توفره الشركة، والخروج للتمشية من الحين للآخر لشراء الطعام من المول، والاتصال بالبيت والدخول على الإنترنت. نادرًا ما خرجوا من هذه الدائرة، لأن الخروج منها يكلف فلوسًا، ولأنهم كانوا يعانون من الإحساس بالإرهاق بعد وردية الاثنتي عشرة ساعة، وبسبب قلة وسائل المواصلات المتاحة لهم.

رغم أن السيارات رخيصة في قطر، فلم يكن بإمكان أي من الحراس العاديين شراء سيارة. بعض المشرفين كانت لديهم سيارات خاصة، ويعيشون في مساكن أكثر راحة. كان المشرفون يتقاضون 1500 ريال بالإضافة إلى الحوافز، ليجنوا 400 ريال أكثر من الحراس العاديين، وهو راتب لا يكفي للتفكير حتى في جلب أسرهم للعيش معهم في الدوحة. دون سيارة خاصة، تصبح قدرة المرء على التنقل في الفضاء الحضري المليء بالسيارات في الدوحة محدودة للغاية. نادرًا ما استخدم الحراس الأتوبيسات العامة التي كانت بطيئة ومكلفة. لكن كان بإمكانهم الاعتماد على شبكة نقل الشركة التي تتحرك من مختلف مواقع العمل في أوقات مختلفة. إذا لم يتمكنوا من ركوب ميني باص الشركة، يمكنهم المشي. كنا نسير كثيرًا لمسافات طويلة في الليل للذهاب إلى المول أو لزيارة أشخاص في مساكن أخرى. هذه التمشيات واستخدام مواصلات الشركة كانت من بين أهم المناسبات الاجتماعية في دائرة حياة الحارس الضيقة. لكنها كانت دائمًا ما تؤدي بك من محطة إلى أخرى داخل هذه الدائرة المغلقة.

هذه الدائرة تحفها صراعات وإحساس بالاغتراب وحساسية لوجود أقل من الحقيقي. لكنها توفر أيضًا إحساسًا مطلوبًا بشدة بالصداقة والانتماء. أهم موقع لذلك الإحساس هو مسكن العمال.

في عام 2009، كان لدى الشركة عدة مساكن في عدد من المناطق السكنية

بالمدينة. فتحت الشركة مساكن جديدة وأغلقت مساكن قديمة، ودأبت على هذا بشكل مستمر، وكان العمال كثيرًا ما يتنقلون من مكان إلى آخر. المسكن الذي أقمت فيه مع توفيق كان يقع في منطقة سكنية مشيدة حديثًا جنوبي الدوحة، على مسافة 20 دقيقة من البنك، بميني باص الشركة.

كان في المسكن حراس ذكور من الشركة (للحارسات وللمشرفين مساكن أخرى منفصلة) ويتكون المسكن من مبنيين من ثلاثة طوابق، وهناك منطقة صغيرة مفتوحة بين المساكن والسور الخارجي. في الطابق العلوي فناء صغير مفتوح. وأمام المسكن واحة من النباتات الخضراء بعرض ثلاثة أمتار، تتغذى على مياه تانك المجاري الذي يسرب المياه وتنبعث منه رائحة مميزة. تم طلاء المجمع بأكمله من الداخل والخارج قبل أيام من وصولي، لكن بدت الحجرات قديمة ورثة، ودورات المياه والمطابخ في حالة أسوأ. كان في الحجرات أجهزة تكييف هواء، ومياه ساخنة في الصنبور. كانت أحجام الحجرات متفاوتة، وفيها كميات متفاوتة من الأسرة والأشخاص.

كانت الحجرة التي يقيم فيها توفيق أصغر من أغلب الحجرات الأخرى. فيها سريران؛ كل سرير من دورين، وسرير ثالث مفرد (ينام الحراس العاديون في الأسرة المزدوجة، ورؤساء الحراس ينامون في الأسرة المفردة)، وكانت كل الأسرة مشغولة بالنائمين. نمت على سرير حارس يعمل وردية الليل. كانت النافذة مغطاة بورق مقوى، بحيث يتمكن حراس وردية الليل من النوم في النهار. كان الطعام قريبًا من السقف، في أكياس بلاستيكية؛ اتقاءً للصراصير. كانت حشرات البق في المبنى كثيرة، تصعّب الحياة، لا سيما في قيظ الصيف. وكانت ملابس الحراس الرسمية معلقة على الجدران، والحقائب تحت الأسرة، وداخل دولابين صغيرين، والستائر الصغيرة تغطي الأسرة السفلية لتوفر حدًا أدنى من الخصوصية، وعلى الجدران بعض لوحات فيها آيات قرآنية، وفي السقف شرائط ملونة من زينة رمضان. وكانت هناك سجادة نظيفة إلى درجة معقولة وناعمة يجلس عليها العمال عادة للأكل وتجاذب أطراف الحديث. وفي

الحجرات الأخرى، كان العمال كثيرًا ما يستخدمون الأعلام القطرية كستائر للأسرة السفلية (توزع الأعلام على العمال مجانًا لدى وصولهم، ويستخدمها العمال كستائر ولحجب الشمس عنهم وكبطانيات). في كل حجرة تقريبًا تلفزيون، لكن حجرة توفيق استثناء. على سبيل التسلية، كانوا يعتمدون على الأفلام التي ينزلها توفيق من الإنترنت على اللاب توب الخاص به. الكتب القليلة التي رأيتها كانت كلها دينية، باستثناء كومة من الأدب العربي والأدب العالمي المترجم، تخص توفيق، الذي كان يقضي فترات طويلة من وقت فراغه في القراءة.

كانت الحجرات مقسمة بحسب الجنسية. في الطابق الذي يعيش فيه توفيق كانت الحجرات الثلاث كلها مخصصة للمصريين. الطابق العلوي به حجرات للنيباليين، وحجرة واحدة لعمال من السودان. الطابق السفلي يحتل أغلبه عمال من تايلاند، والمبنى الآخر يستضيف الهنود والسريلانكيين. الحجرات التي رأيتها كانت جميعًا متشابهة في تصميمها وازدحامها الشديد بالناس وانعدام النظافة. الاستثناء الوحيد هو الحجرة التي بها الحراس السودانيين الثلاثة، الذين كانوا في قطر منذ مدة أطول من البقية، وكانت حجرتهم تخصهم وحدهم. كانت الحجرة بها أسرة مفردة وسجادة نظيفة وطبلية في المنتصف، وكانت تختلف عن الحجرات الأخرى؛ إذ كانت على غير العادة نظيفة ومريحة.

كان في أحد مباني الحي إنترنت وايرلس، وكل من معه لاب توب يتصل به ليدخل على الإنترنت.(7) لكن الشبكة لم تكن تعمل إلا خارج المبنى، ولهذا في المساء كان الحراس المصريين يتسلقون إلى سطح المبنى، وكأنه السايبر الخاص بهم، كما يسمونه، للاتصال بأصدقائهم وعائلاتهم وصديقاتهم وخطيباتهم، ولتنزيل الموسيقى والأفلام. في أكتوبر، كان الهواء باردًا في الليل بالقدر المناسب، وفي مرات عدة تسلقت مع توفيق والآخرين إلى السطح لنجلس ونتكلم ونمزح ونستمع إلى الموسيقى ونشاهد التلفزيون في أجواء مفعمة بالمرح والسرور. لكنهم ما كانوا ليتسلقوا إلى السطح لو لم تكن وصلة

الوايرلس متوفرة هناك.

كان أغلب الحراس يطهون طعامهم بأنفسهم، ومن بينهم عمرو، الذي أخبرني بأنه لا يحب الطهي، لكنه يدخر بعض النقود، وتوفر الطعام الساخن يجعل الحياة أكثر احتمالاً بكثير. أدهم، رئيس الحراس الذي يعيش في نفس حجرة توفيق، كان يطهو طعامه بنفسه بدوره، وقال إنه يتبع روتين يومي صارم: لا يمكنه النوم حتى يصلي العشاء ويستحم. الدُش، على حد قوله، متصل بحبه للرياضة وتعليمه في كلية التربية الرياضية. هناك آخرون بينهم توفيق، اعتمدوا على الطعام السريع الذي يشترونه من منطقة تسوق صغيرة قريبة، ونمط حياتهم أقل روتينية. على الأقل بالنسبة لتوفيق، كان انعدام النظام هذا مرتبط بالمعاناة من مشاكل في النوم، والإرهاق، والاكتئاب أحيانًا.

هذا المسكن المزدحم، غير النظيف أو المُرحب كان على ذلك أفضل شيء مُتاح للحراس؛ لأنه كان بمثابة مكان للاختلاط وللصداقة. أخبرني توفيق بأنه رغم كثرة النزاعات والتوترات بما أن الناس يعيشون معًا في مكان واحد، فكونهم معًا في مسكن واحد جعل الحياة محتملة: "على الأقل إحنا مع بعضينا".

لكن لم يكن العمال مع بعضهم البعض بوصفهم عمالاً. كانوا معًا بصفتهم عمالاً مصريين.

ذات مساء، ركبت ميني باص الشركة مع توفيق من البنك إلى المسكن. كان الميني باص ممتلئاً بالحراس المصريين والنيباليين والهنود. تأخر أحد الحراس النيباليين، فأراد السائق أن ينتظره، وكان نيباليًا أو هنديًا. توتر المصريون وغضبوا وقالوا لسائق الأتوبيس بالعربية: "مستني أيه يا ابن المتـ***؟" بعد دقائق وصل الرجل ومضى الميني باص في طريقه، لكن ظلت الأجواء متوترة وراح المصريون يتبادلون الآراء فيما بينهم، بالعربية، وكانت كلماتهم محملة بالشتائم، واحدة تلو الأخرى: "ابن المتـ***"، "ابن الشر***"، "ابن الوسـ***". مساء الأمس كنت جالسًا في نفس الميني باص وتأخر أحد المصريين. تلك المرة،

توتر النيباليون والهنود وكان السائق يريد التحرك دون المصري المنتظر، لكن المصريين صمموا على الانتظار.

على المستوى الفردي، يمكن أن يتحلى العمال من مختلف الجنسيات بالود والاحترام تجاه بعضهم البعض. لكن في المواقف مثل موقف الميني باص، يتصرف الناس بشكل جماعي ويدافعون عن أبناء بلدهم، وسرعان ما تتوتر الأجواء ويسود عدم الاحترام. أغلب الوقت كانت النكات والتعليقات العنصرية بحق الجماعات الأخرى وفيرة. وجود أبناء الجماعة الواحدة مع بعضهم البعض يجعل الحياة محتملة، لكنه في الوقت نفسه يعني تشكيل جماعات متنافرة ومتشككة في بعضها البعض، على خطوط إثنية ووطنية. لهذا كانت الحجرات في مساكن الشركة دائمًا مقسمة بحسب الجنسية. الحجرات المختلطة كانت لتصبح مليئة بالمشاحنات بسبب رائحة الطعام ومقدار الخصوصية المتوفرة للأفراد والتفاعلات بينهم. وكانت الحساسيات الدينية جزءًا من هذا الفصل، لكن بقدر ارتباطها بالجنسية والإثنية. لم أر بوادر تضامن ديني بين المسلمين من العرب ومن جنوب آسيا. وكان هناك تضامن بين أبناء الدول العربية، لكن المصريين والسودانيين كانوا يعيشون في حجرات مختلفة.

كان الطعام تحديدًا يتمتع بأهمية، وتحف به شواغل ذات مسحة أخلاقية. لم يكن العمال المصريون يأكلون طعام جنوب آسيا على الإطلاق، باستثناء سندوتشات الدجاج التي تُباع رخيصة قرب البنك. في قطر، يعتبر كل الطعام الرخيص "حلال"، فلم تكن إذن مشكلة. ولكن رائحة ومنظر الطعام الأسيوي وعادات تناوله يراها المصريون خاطئة، وتبث الاضطراب في إحساسهم البدني والأخلاقي بالسلامة والرضا، وهو الإحساس المرتبط بشكل حميمي بالطعام والأكل. بل إن المصريين تعجبوا من حبي لطعام جنوب آسيا وأنني كنت أختار أكشاك الطعام الباكستانية أو النيبالية الرخيصة لشراء غدائي منها. بالنسبة لأصحابي المصريين، فإن تناول طعام جنوب آسيا يثير علامات الاستفهام على ولائي لهم.

بالنسبة إلى توفيق، لم تقتصر فكرة الهجرة على ادخار الفلوس، لكن أيضًا على توسيع آفاقه، وتعلم كيف يتعامل في مختلف مناطق العالم ومع مختلف الجنسيات. بالنسبة للعديد من المهاجرين، فإن تجربة التعامل مع الناس المختلفين من أعراق وخلفيات دينية وطبقية مختلفة تسهم في اتساع خبرتهم وأفقهم العالميين. قابلت أشخاصًا قالوا إنهم تعلموا واستفادوا من التعامل مع أشخاص من مناطق مثل الهند والفلبين ومن أساليبهم وآرائهم المدهشة والغريبة. لكن قليلين منهم تقبلوا بشكل صريح تنوع مكان مثل الدوحة. في العادة، فإن التعامل مع العالم المشمول في مكان مثل الخليج يترافق ويتزامن مع قوالب من النقاء والفصل (Osella and Osella 2007). بالنسبة لأصحاب الدخل المرتفع، فإن الفصل الطبقي في بيئات تتوفر فيها الامتيازات عادة ما يسهل عليهم عبور الحدود العرقية واللغوية (انظر Kanna 2010, Vora 2013). ومن ينتمون إلى قطاع الدخل المنخفض، لا بد أن يعتمدوا على مجتمعاتهم العرقية واللغوية في الحصول على الدعم. كانت لتوفيق علاقات طيبة بزملائه النيباليين في قطر، ولوكراج الذي كان من أقرب أصدقائه، كان نيباليًا. على ذلك، كانت علاقته بتعددية أساليب الحياة واللغات والأعراق والخلفيات الحضارية المختلفة التي صادفها، تتسم عادة بنفس السلوك الذي رأيته في أغلب الحراس المصريين: انغلاق إزاء المجهول وغير المألوف، وسلوك متحيز مسبقًا نحو الجنسيات الأخرى يتسم بالتسخيف منها.

يحدث التحيز المسبق prejudice من خلال إرساء معايير مزدوجة بين الأحكام المسبقة الجماعية والاستثناء منها على أساس المعرفة الفردية. أوضح لي توفيق أن لوكراج يختلف عن النيباليين الآخرين، وقال لي لوكراج أن توفيق ليس مثل المصريين الآخرين.

كان لوكراج يعمل عند مدخل جراج وراء بنك إيستاسيا، وكان يناول كروت الانتظار للسيارات وهي تدخل الجراج. ذات يوم، ساعة الظهر، زرته هناك، وفيما كان يتعامل مع السيارات العابرة، اشتكى لي من كيفية تعامل المصريين

مع الجنسيات الأخرى: "يصيحون ويتضاحكون ويأمرون بشكل فج". أضاف قائلاً إنه ليس جميع المصريين هكذا: ليس توفيق مثل الآخرين، ومن بين 13 أو 14 مصريًا عمل معهم، كان شخص واحد منهم يعامله معاملة سيئة. لكن، هكذا أصر، لا يتعامل المصريون جيدًا مع الجنسيات الأخرى. مرت سيارة. سأل السائق لوكراج فأجابه بالعربية: "الدور الرابع". ثم قال لي بالإنجليزية:

"تعلمت بعض الكلمات العربية هنا، لكن أغلب المصريين لا يتعلمون أي شيء. توفيق من القليلين الذين يتحدثون بعض الكلمات النيبالية، ويتحدث الإنجليزية جيدًا. أغلبهم لا يحاولون حتى تعلم الإنجليزية أو أية لغة أخرى. نأتي إلى هنا، في بلد غريبة، له ثقافة مختلفة، وعلينا تحمل الحياة. علينا تحمل أشياء كثيرة، لكنهم لا يعرفون كيف يتحملون الناس الآخرين. لا أعرف إن كان لهذا علاقة بالأسرة أو التنشئة، لكن يتسمون بهذه الطريقة في توجيه الأوامر للناس. في نيبال، إذا ذهبت إلى هناك يومًا، سوف تصادف أشخاصًا كثيرين، وستجدهم ودودين معك، وفي أخر اليوم سيدعوك شخص ما لتقيم معه في بيته".

وأنا أتذكر الحفاوة الكبيرة التي رأيتها من المصريين، رحت أفكر كيف تختلف تجربة العمال النيباليين مع المصريين عن تجربتي معهم. ضمني المصريون بصدر رحب إلى مجموعة أصدقائهم المشتركين، وأصبحت من المشمولين بهذا التضامن الجماعي فيما بينهم، لكن مع العمال من بلدان أخرى، يحاولون إظهار أنهم أفضل من الآخرين. عوملت معاملة طيبة ورحبوا بي؛ لأنني أوروبي أبيض، فهذا شخص له امتيازات. أن يُعامل شخصٌ له امتيازات شخصًا آخر معاملة الند للند فيضفيه إحساسًا بالإقرار بوجوده، في حين أن تكون معاملة المرء ندية مع شخص فقير يتنافس معه على المكانة والمكان، فربما في هذا تحد أو تهديد. هذا الإجراء التمييزي الذي ينتهجه المضطهدون الذين يحاولون الإحساس بأنهم أفضل من مضطهدين آخرين، مقترنًا بضرورة الاعتماد على أشخاص يمكن للمرء أن يفهمهم ويثق بهم في الشدائد، يؤدي إلى انتشار هذا

المزاج من التحيز المسبق العنصري والكراهة في أوساط الفقراء والمُستغَلين في الخليج.

عنصرية المهمشين هذه ليست مجرد أثر جانبي عارض للهجرة من أجل العمل. إنه جزء لا يتجزأ من كيفية حُكم بلدان مثل قطر. قال لي الحراس إن في قطر نظام "كوتة" لاستخدام العمال من مختلف الدول، مع الاحتفاظ بأغلبية مسلمة من إجمالي تعداد السكان. (8) وفي الشركة أيضًا، تتكون قوة العمل من عدة جنسيات، أعدادهم النسبية محكومة بنظام كوتة. من وجهة نظر تنظيمية، فهذه التعددية المنظمة قد تؤثر سلبًا على الإنتاجية. هناك مهام عمل بسيطة بطبيعتها تعقدت بشدة بسبب عدم وجود لغة مشتركة. نظرًا للبعد الاتصالي في عمل الحراس، فلم لا يتم استخدام متحدثي العربية حصرًا؟ عدد متحدثي العربية (أو أي مجموعة أخرى) مقيد – عمدًا – بواقع نظام كوتة من أجل الحيلولة دون تسييس العمال وتحركهم الجماعي. حتى الثمانينيات، كان العمال العرب في الخليج أكثر من أي مجموعة أخرى، لكن حين احتشد العمال الفلسطينيون لدعم العراق بعد احتلال العراق للكويت، تم طرد أغلب الفلسطينيين، وأصبحت السياسة المتبعة في دول الخليج هي تقليل عدد العمال العرب والجمع بين جماعات إثنية عديدة تتبادل العداوة (Hanieh 2011).

سبب هذه السياسة واضح. يشكل السكان الأجانب (أومن يسمى بـ"المقيمين") أكثر من 80 في المائة من سكان قطر (Scharfenort 2014; 72). في البنوك بشارع حمد الكبير يؤدي مواطنون أجانب كل العمل، من أعلى مستويات العمل المصرفي إلى أدنى مستويات الحراسة والتنظيف. ينظف بيوت القطريين ويرعى أطفالهم عمال منازل أجانب، ويمد الشوارع ويبني البيوت ويقوم بصيانتها عمال إنشاءات مهاجرون، والبنية التحتية كلها تحافظ عليها وتحرسها قوة عمل أجنبية، فضلاً عن الشرطة والجيش التي تضم في صفوفها عمالًا مهاجرين، يشكلون أغلب العاملين، باستثناء مستويات القيادة العليا. إذا

اتخذ المهاجرون موقفًا موحدًا، فسوف يسيطرون على دولة قطر بأكملها في نصف ساعة دون إطلاق رصاصة واحدة. لكن لأن الكراهية المتبادلة بين تلك الجنسيات أكبر من كراهية أصحاب العمل ونظام الاستغلال القائم في دولة قطر، فلن يحدث هذا أبدًا.

عنصرية المهمشين هي جزء من معمار السلطة، حيث يتم نزع التسييس من المجتمع الخليجي بأسره. المهاجرون لأنهم سيخسرون الكثير ويربحون القليل من الاضطراب السياسي، ولأنهم منقسمون انقسامًا عميقًا على خطوط الطبقة والعرق، والمواطنون لأن النظام يمدهم بامتيازات كبيرة حتى إن لم يكونوا ضمن النخب الحاكمة (Kanna 2010; Davidson 2014). بغض النظر عن جعل الثورة مستحيلة، فإن عنصرية المهمشين لها أيضًا تبعات مباشرة تلحق بالعمال، وتلحق بإمكانية التقائهم على مشتركات وعلى الأحلام المتاح لهم حلمها. من خلال تقييد حركة التضامن والثقة على خطوط عرقية، فأنت توجّه أيضًا ما يعتبر أمرًا يستحق التعلم والمعرفة والتخيل والرغبة. وبطريقة تتواكب مع وتعزز دائرة الحياة الضيقة بين موقع العمل والمسكن، فإن عنصرية المهمشين هي من السلطات التي توجّه أحلام العمال المهاجرين باتجاه درب محدد وضيق ودائري.

7- في أوساط المصريين، كان اللاب توب عادة هو أول ما يشتريه العمال ما إن يدخروا بعض النقود. في عام 2009 كانت الهواتف الذكية قد ظهرت في الأسواق للتو وكانت باهظة التكلفة على العمال المهاجرين. كان الحراس يشترون في العادة أيضًا هواتف محمولة جديدة، لكن في عام 2009 كان اللاب توب لا غنى عنه للدخول على الإنترنت.

8- ليست إحصاءات الدول الوافد منها المقيمين في قطر متوفرة علنًا، ولم أتمكن من تأكيد هذا الزعم الخاص بكوتة الأغلبية المسلمة من مصادر أخرى.

الفصل الرابع: التحمل والمقاومة

كان العمال يعرفون بالنظام وبمدى استغلاله لهم ولا يحبونه. قال لي لوكراج:

"الأمر تمامًا مثلما قام الأوروبيون بنقل وبيع الأفارقة كعبيد في أمريكا. ما حدث للأفارقة وقتها يحدث لنا الآن. نُنقل إلى هنا، تبيعنا الشركة، توجهنا وتأمرنا. لا خيار أمامنا. في نيبال، تغير النظام من مملكة إلى جمهورية. إذا كان بإمكاننا عمل أي شيء، أو تنظيم إضراب، يمكننا تغيير هذه البلد".

على صعوبة موقف حراس الأمن، فقد كان أفضل من حال عمال آخرين كثيرين. لكنهم كانوا عالقين في وظيفة يكاد راتبها لا يغطي كلفة الرحلة، ولا يمكنهم التغيير إلى وظيفة براتب أفضل، وليست أمامهم إمكانات قانونية تؤهلهم للمطالبة بحقوقهم أو تحسين أوضاعهم. أدى هذا قطعًا إلى إحساس بالإجحاف والظلم. وبما أنه لم يكن بوسع العمال الكثير لكي يغيروا ظروفهم، فقد بذلوا قصارى جهدهم من أجل الالتفاف على الوضع وعمل كل شيء ممكن لادخار النقود، ولجعل الحياة أكثر قابلية للاحتمال، وللرد رمزيًا على الاستغلال الذي عليهم تحمله.

العمال مثل حمزة الذين كانوا يتعاملون مع وظيفتهم بجدية ويحاولون إتقان العمل، كان زملاؤهم ينظرون إليهم بصفتهم يتحلون بسلوك عمل غير ملائم وخارج عن المألوف. ذكرني لوكراج ذات مرة قائلاً:

"يمكن أن نموت من العمل لأجل الشركة ولن تعطينا مكافأة إضافية. لا فائدة من تقديم تضحيات للشركة. نحن نعمل بالفعل 12 ساعة في اليوم، على مدار 365 يومًا في السنة، وفي هذا تضحية كافية. لذلك لا بد من الـ"خلي ولي".

"خلي ولي" هي كلمة بالعامية الخليجية تُترجم إلى "هون عليك" أو "كبر دماغك"، أو "ما علينا". ويستخدم هذا التعبير إما للالتفاف على الأمور أو إن لم يكن الالتفاف حولها ممكنًا فهي بمعنى ألا تدع المشكلات تزعجك كثيرًا.

النوم في العمل من الأمور المعتادة، لا سيما أثناء دوريات العمل لمدة 12 ساعة. أيام الجمعة عندما يغلق البنك أبوابه، يكون المشرف المسؤول "خلي ولي" ويصل إلى البنك ساعة الظهر تقريبًا، ويسمح للحراس بالنوم، بما أنه لا يوجد شيء يعملونه على كل حال. أفضل مواقع العمل هي التي لا يتابعك فيها أحد عن قرب، وحيث يمكن تجاذب أطراف الحديث، واللعب على الكمبيوتر، والقراءة والنوم قليلاً. أسوأ مواقع العمل هي تلك التي لا يُسمح فيها للمرء بالنوم: ورديات الليل حيث لا يمكن للمشرفين قبول أن ينام الحراس، والمواقع ذات الأهمية الأمنية العالية، مثل البنك المركزي، حيث توجد صفوف من الكاميرات موجهة إليك.

شارك العمال في مخططات عديدة صغيرة لخداع النظام لكي يدخروا النقود ويوفروا على أنفسهم التعب. لأن المكالمات من الهواتف المحمولة باهظة الثمن، ابتكر الحراس طريقة لخداع شركة المحمول في الفاتورة. كانت شركة المحمول الوطنية كيوتل تعرض اشتراكًا شهريًا فيه 1000 دقيقة مجانية، تُدفع في نهاية الشهر. لكن إذا غادر المشترِك البلاد قبل انتهاء الشهر لا تطالب الشركة بفاتورة. أخبرني زيد المشرف على توفيق أنه اشترك عدة مرات بأسماء أشخاص غادروا البلاد، وفي كل مرة يتصل بالبيت في مصر كما شاء لمدة شهر. قال: "بيسرقوني من سبع سنين، مفيهاش حاجة لما أسرق منهم شوية برضه".

كانت كل ثغرة في النظام يمكن ادخار الفلوس من خلالها أو الجهد أو الأعصاب بمثابة مبعث متعة صغيرة للحراس. يتحدثون عنها كثيرًا ويرون فيها طريقة لاسترداد قدر من الكرامة وسداد بعض من الاستغلال الذي يتعرضون له. هذه التكتيكات من التلاعب بالنظام لصالح الطرف الضعيف ناقشها ميشيل دى سرتو (1984) في كتابه الشهير "ابتكار الحياة اليومية" (L'Invention du quotidien). من أجل فهم الواقع الاجتماعي وعلاقات السلطة، على حد قول دى سرتو، فمن الضروري الانتباه إلى التدابير متناهية الصغر الخاصة بأداء الأشياء وتكييف الظروف على يد الضعفاء. رؤية دى سرتو لتكتيكات الضعفاء

(ومقابلها استراتيجيات الأقوياء) يمكن أن تُقرأ بصفتها وجهة نظر مضادة (أو نقطة تكميلية) لتحليل ميشيل فوكو (2007) لسلطة الخطاب والانضباط: مسألة الإجراءات والتقنيات الخاصة بالقوة تستدعي التساؤل حول كيف يتعامل الناس مع الظروف التي تخضعهم لها القوة.

لرؤية دى سرتو سمتًا تحريريًا. . البحث عن الأمكنة التي قد يجد فيها الضعفاء قدرًا من القوة/السلطة، وإن كانت محدودة. على أن الظرف الذي يعايشه العمال في قطر يلزمني بقراءة دى سرتو بطريقة أكثر تشاؤمًا. التكتيك هو سبيل للفعل يأخذ إطاره بصفته من المسلمات: إنه – التكتيك – يعني تحقيق أفضل الاستفادة من الموقف مع الإقرار بحتميته. الخدع والثغرات في العمل التكتيكي ليست في كل الحالات أعمال رفض أو تمرد، الحق أنها قد تكون أحيانًا جزءًا من النظام نفسه. الشبكات الشخصية والمحاباة والاستثناءات والخدع ليست استثناءات على القاعدة، إنما هي في القلب من نظام الحُكم (الحوكمة) في الخليج وفي بلدان أخرى. القوي والضعيف على السواء يعتمدان على العمل التكتيكي (انظر Osella and Osella 2012)، ولكن الضعيف من حيث التعريف نصيبه من القوة أقل، بحيث لا يقدر أن يستخدم العمل التكتيكي بشكل يحسن من مكانته بشكل ثابت. الطريقة التي تستعين بها الشركات في منع العمال من التنظيم عندما تستخدم عمالاً من جنسيات عديدة يفتقدون للثقة في بعضهم البعض بحيث لا يمكنهم أخذ موقف مشترك، هو مثال أساسي على كيف يعتمد نظام الاستغلال على كيفية "تصرف" الأشخاص الذين يعانون من الاستغلال. النوم في العمل بالطبع، وعدم إتقان العمل، وترك الفواتير دون سدادها، ليست بالأمور المفيدة للنظام بشكل مباشر بقدر فائدة عنصرية المهمشين للنظام. لكن هذه الأعمال "الالتفافية" لا تتحدى النظام. إنما هي تجعله أنعم وقعًا.

على أن بعض المقاومة ممكنة. في نهاية أسبوعي الثاني في الدوحة، نظم العمال في أحد المساكن احتجاجًا ضد الشركة. بعد الانتقال بقليل إلى مسكن

جديد في حي النصر (ليس اسمه الحقيقي) في الدوحة، تم توجيه الأمر إليهم بالانتقال مرة أخرى. رفض الحراس المصريون. كان حمزة بينهم. أخبرني بما حدث:

"رفضنا النقل للسكن الجديد انهاردة. السكن بتاعنا جميل، في حتة كويسة قريبة من قصر واحد أمير، فتلاقي المنطقة كلها تمام، والهوا نضيف، ومكان صحي تعرف تعيش فيه. وكمان عندنا وايرلس. الشركة عايزانا ننقل سكن تاني. النيباليين نقلوا الأول، وبعدين راح وراهم السريلانكيين والهنود. بس المصريين قرروا يقعدوا. المواصلات حلوة، وإحنا تعبنا من النقل لسكن جديد كل شوية. . نقعد نشيل في شنطنا وسرايرنا وكل حاجة. كل مرة ننقل مكان جديد بتتكسر منك حاجات، وتلاقي اللي يضيع شنطته واللي يضيع اليونيفورم بتاعه. عايزين نقعد هنا. السكن الجديد كبير، تلات أدوار وفيه جنسيات كتير مع بعض، يعني مش هنخلص من المشاكل. انهاردة يوم كويس جدًا. دي أول مرة خدنا موقف إيجابي."

حدثت هذه المناقشة أثناء استراحة للسجائر وراء بنك إيستاسيا حيث وقفنا مع جرجس وسيف ولوكراج، وكانوا يعيشون في نفس المسكن. وكما هو متوقع، هددت الشركة بفصل العمال المحتجين. قال جرجس إن هذا لم يردعه:

"سكن النصر أنضف وأجمل سكن، وهنقعد فيه مش ماشيين، ولو رجّعونا مصر معنديش مشكلة".

سمعت بهذا الاحتجاج لأول مرة قبل يوم. كان توفيق قد أخبرني بتوقعه فصل العمال المعترضين وإعادتهم إلى بلدهم. لكن بدا أنهم سينتصرون، إذ دار كلام بين العمال المصريين من السكن حيث يقيم توفيق (وهو أسوأ بكثير من سكن النصر) أنهم سينتقلون إلى السكن الجديد لإنقاذ الشركة من الإحراج أمام النيباليين والسريلانكيين والهنود الذين وافقوا على الانتقال للسكن الجديد.

بدت السعادة على حمزة وسيف وجرجس، والفخر، لقدرتهم على اتخاذ هذا

الموقف الجماعي. لوح سيف بقبضته إشارة للكفاح الجماعي الذي خاضه. لكن الكفاح لم يكن جماعيًا. رفض جميع المصريين في سكن النصر الانتقال. لكن الجنسيات الأخرى كانت قد غادرت السكن بالفعل وقت أن أعلن المصريون الرفض. كان لوكراج من بين النيباليين الذين انتقلوا من النصر إلى السكن الجديد. اعترف بأن السكن الجديد أسوأ، وفيه أكثر من عشرة أشخاص في الحجرة الواحدة وحمام واحد في كل طابق. وفي مناسبة أخرى، كان لوكراج يحلم بالعمل الجماعي من قبل كل العمال بحيث يمكنهم تغيير الدولة بأكملها. لكن الآن، ها هو عمل جماعي يحدث، وتمنعه خطوط الفصل العرقية من المشاركة فيه.

بعد أيام، كنت أسير مع توفيق إلى سكن النصر لزيارة أصحابنا هناك. كان بالفعل سكنًا أفضل وأكثر راحة من الذي رأيته. قال لنا مضيفونا إن احتجاجهم نجح لأنهم كانوا كثيرين ويشغلون مناصب مهمة بحيث يصعب استبدالهم جميعًا بعمال آخرين. كما أخبرونا بأنهم ملوا من فكرة الفصل من العمل والترحيل، لأن هذا لن يضرهم كثيرًا على كل حال. ولأنهم ملوا، فلم يعد من السهل تخويفهم. هذه العوامل مقترنة جعلت المقاومة ممكنة وناجحة، وإن كانت داخل إطار ضيق.

ربما يبدو احتجاج العمال في سكن النصر صغيرًا وغير مهم مقارنة بالعديد من الإضرابات الأكثر دراماتيكية والأحداث الجسام التي كان العمال أبطالها في أزمنة وأماكن أخرى، بما في ذلك في بعض دول الخليج، لكن قول كلمة "لا" في حد ذاته ولّد إحساسًا بالقوة والإمكانية. مع تحوّل موضوع محادثاتنا من العمل الاحتجاجي إلى رأي الرجال في قطر وأحلامهم بالمستقبل، قال سيف: "بخصوص سؤاله عن رأيي إيه في البلد، رأيي إنها عايزة حركة عمالية. محتاجة ثورة عمال". هذه التجربة إذن ولدت عند بعض الرجال أحلامًا جديدة. بالنسبة لبعضهم، ربما أسهمت في تكوين وعي سياسي انتقادي لديهم عند عودتهم إلى مصر (انظر Gruntz 2012b). لكن وقتها، في قطر، كان العمل

الجماعي لخمسين رجلاً غير عابر لخطوط التقسيم العرقية ولا قادر على إحداث أوجه تحسين مستدامة أو حراك طويل المدى. لم تتشكل حركة عمالية ولم تندلع ثورة عمال في قطر. (9)

9- في السنوات التالية كانت هناك إضرابات أكبر في شتى أنحاء دول الخليج في أعقاب الأزمة المالية العالمية. لكن هذه الإضرابات بدورها لم تسفر عن ظهور وعي طبقي في أوساط العمال المهاجرين. انظر Hanieh 2011 ص 191-192.

الفصل الخامس: عوائل فقط

كل جمعة، يجتمع العاملون في قطاعي الصناعة والإنشاءات في يوم عطلتهم في شارع حمد الكبير والجزء القديم من وسط مدينة الدوحة. ينحدرون من جميع بلدان جنوب آسيا وجنوب شرق آسيا، وهم جميعًا من الذكور. يعمل حراس البنوك سبعة أيام في الأسبوع ولا ينضمون إلى الجمع الذي ينعقد أمام مواقع عملهم مباشرة. كل منطقة ظليلة في شارع حمد الكبير تمتلئ بالناس بعد صلاة الجمعة مباشرة، ويتوافد الناس باستمرار على امتداد المساء.

على مسافة بلوك واحد من الطرف الشمالي لشارع حمد الكبير يقع "سوق واقف"، وهي منطقة مطاعم ومتاجر أعيد بناؤها مؤخرًا على هيئة سوق تاريخي. سوق واقف والكورنيش المُعاد بناؤه حديثًا مناطق محبوبة في أوساط الطبقات الغنية: المواطنون القطريون والمهاجرون الذين يعملون في قطاعات بالاقتصاد تدر عليهم رواتب كبيرة.

سوق واقف والكورنيش مناطق لا يرتادها العمال المجتمعون في شارع حمد الكبير. في الشارع الذي يقسم المنطقين، هناك خط من الحراس والشرطة تمنعهم من عبور الشوارع وتأمر من الحين للآخر العمال بالابتعاد عن نواصي الشارع. في أيام العطلة (أي مساء الخميس وفي يوم الجمعة)، تكون المولات والحدائق لـ "العوائل فقط". رغم أن الكورنيش وسوق واقف ليسا مخصصين للعائلات فحسب في العطلات بشكل رسمي، فمن حيث الممارسة ليس العمال مرحبًا بهم هناك. يُعتبر العمال "عزابًا" رغم أن الكثيرين منهم متزوجون ولهم أطفال في بلادهم، ويخضعون لسياسة فصل صارمة تمنعهم من إلحاق أي ضرر بـ "العوائل" أو إزعاجها (Andrew Gardner 2012). القطريون الأصليون مجتمع محافظ مهتم جدًا بالفصل بين الإناث والذكور، وهناك بواعث قلق في قطر إزاء العمال الذكور الذين ينظرون أو يصورون أو يكلمون بشكل يزعج السيدات القطريات والمقيمات الثريات. التحرش الجنسي في الأماكن العامة عمل يُعاقب

عليه القانون (وهو ما وجده الحراس المصريون والنيباليون مسألة مؤسفة).

لكن نظام الفصل هذا بالطبع لا يقتصر على إبقاء الرجال العزاب على مسافة آمنة من العائلات. هو أيضًا إبعاد للفقراء عن الأثرياء.

كنت أنا وتوفيق نستغل أيام الجمعة للخروج، بفضل عدم تشدد مشرفيه الذين سمحوا له بمغادرة ورديته مبكرًا. ذات جمعة، سرنا في شارع حمد الكبير عبر حشود العمال، وعبرنا ناصية من نواصي الشارع عليها حراسة جيدة، تؤدي إلى سوق واقف والكورنيش. تركنا الحراس نمر دون سؤال أية أسئلة. ومن الكورنيش ركبنا أتوبيس إلى مول في دفنة عند الطرف الشمالي للكورنيش حيث يتم تشييد منطقة جديدة من الأبراج. كان للمول محطة أتوبيس بحيث يتمكن المهاجرون الفقراء بدورهم من الوصول إليه، لكن عند الباب مُنعت مجموعة من خمسة فلبينيين من دخول المول. كانوا سيدتان وثلاثة رجال. كانت عطلة نهاية الأسبوع والمول "للعوائل فقط"، لذا تبين أن الرجل الفلبيني الثالث زائد عن المطلوب، ولم يُسمح له بالدخول. لكن لم يسألنا أحد أية أسئلة عندما مضيت مع توفيق إلى داخل المول مباشرة. تمشينا، واشترينا تذاكر لمهرجان الدوحة ترايبيكا السينمائي الذي كان سيبدأ بعد أسبوع، وعند الغروب اتجهنا إلى الكورنيش. استمتعنا بالأجواء هناك وسرنا ببطء نحو وسط مدينة الدوحة من جديد. وفي الطريق دخلنا حديقة على الطرف الآخر من طريق الكورنيش. كانت الحديقة مزدحمة بالعائلات القطرية وعائلات المهاجرين، وبدا أنهم جميعًا من أصحاب الدخل الجيد. كانت أول مرة بعد أكثر من أسبوع في الدوحة أرى فيها هذا القدر الكبير من الأطفال. ولأنها عطلة نهاية الأسبوع كانت الحديقة "للعوائل فقط". بدت مساحة مريحة للسيدات وللعائلات حقًا، وشعرنا بأن لا مكان لنا هنا. لكن رحنا نسير دون أن يطرح علينا أحد أية أسئلة.

رغم أننا كنا رجلين، دون سيدات أو أطفال برفقتنا، كان بإمكاننا أن نمر عبر كل نقاط المراقبة والرصد إلى مناطق "للعوائل فقط" بفضل لون بشرتي وشعري. كان شكلي يربطني مظهريًا بالمهاجرين الأثرياء (المعروفون أيضًا بمسمى

أو "المغتـربين") ولأن توفـيق معـي، فقـد ارتبـط بالتبعيـة بطبقـة "expats" المغتـربين التـي تنطبـق عليـها قواعـد مختلفـة. كـان سوق واقف والكورنيش مناطق مصممة لأشخاص مثلي. يمكنني دخول المول في أي يوم. (وبالنسبة للحديقة فقد تمادينا، وكان من الممكن أن يُطلب منا مغادرتها).

مثـل جميع دول الخليـج، فـإن المجتمع القطري هرمي ومقسّم للغايـة، حيث الجنسية والطبقة والعرق تجتمع لتخلق نظامًا معقدًا من الامتيازات والاستبعاد (Davidson 2014; Hanieh 2011; Vora 2013; Kanna 2010). منطق "العوائل" و"العزاب" هو جزء من هذا النظام، لكنه لا يقتصر فحسب على إبعاد القطريين ("المواطنين") بعيـدًا عن المهاجرين ("المقيمين"). إنما هو يفصل المهاجرين الذين يربحون أجورًا جيدة بالقدر الكافي لجلب عائلاتهم معهم، عن المهاجرين غيـر القـادرين علـى هـذا. كمـا يفصـل المهـاجرين ذوي الأصول الأوروبيـة عن المهاجرين من أصول آسيوية وشرق أوسطية. هو من أشكال الفصل بناء على الطبقة والدخل، فضلاً عن العرق.

بكـل سـعادة، انتهز توفيق الفرصـة التـي أمـده بهـا مكـاني فـي النظـام. كانت الحـديقة مكانًا لطيـفًا حقًا. . منطقـة مناسـبة لخروجـة عائليـة. كان فيهـا تلال ودروب ملتويـة وسـلالم ونـافورات وكـافيتريات وملاعـب للأطفـال. استمتع توفيق بوجوده في مكان فيه هذا القدر الكبير من النساء من حوله. لكنه مصمم لكي تستمتع به العائلات فحسب، وفي قطر لا يمكن أن تكون معك عائلة إلا لو معك فلوس، بسبب كلفة السكن الكبيرة. زيد، من مشرفي توفيق الاثنين في البنك، كان متزوجًا، لكن زوجته وأطفاله يعيشون في مصر وجلبهم إلى قطر مسألة لا يمكنه تحملها ماديًا. قال إن حتى الشقة الصغيرة تكلف ما لا يقل عن 3000 ﷼ في الشهر، أي ضعف راتبه كمشرف حراس. لهذا ففي الأحياء التي يقيم فيها العمال المهاجرين، نادرًا ما ترى أطفالاً.

مع مرورنا بالحديقة، علق توفيق قائلاً: "البلد دي عايزة واحدة وعايزة فلوس". لكن لكي يتحصل رجل على زوجة في قطر، يجب أن تكون معه فلوس، أكثر

بكثير من راتب حارس قديم في وظيفته. وإذا كانت لدى توفيق زوجة وفلوس، ما كان ليذهب إلى قطر من الأساس.

المنطق الجنساني للتفرقة الطبقية ينتج سبلاً عديدة متباينة لحياة المهاجرين في قطر. فصل "العوائل" عن "العزاب" يميز بين من يمكنهم أن يعيشوا حياة كاملة في قطر، ومن يعملون ويتحملون لأجل حياة مكانها مصر أو نيبال أو الهند أو الفلبين.

العيش كـ "أعزب" معناه أن تعيش حياة اجتماعية أحادية الجنس باستثناء التواصل الرسمي الشحيح مع بعض الموظفات في البنك وفي أماكن العمل الأخرى القريبة. هذا الظرف من التفرقة الطبقية الجندرية، مقترنًا بثقافة الذكورية "masculinity" حيث تُكبت أو تُخفى الأبعاد الإيروتيكية المحتملة للرجال الذين يعيشون معًا، تعني أن يتحدث الحراس دائمًا عن النساء. كما أنهم - إلى حد بعيد - يعرّفون موقفهم من خلال انتقاد الأخلاق الجنسية في الخليج.

بالنسبة للسيدات من الطبقات البرجوازية المصرية، يمكن أن تكون قطر والإمارات أماكن مريحة لأن التحرش في الأماكن العامة نادر الحدوث وتبذل السلطات جهودًا مضنية لمنعه. في حين يتعين عليهن تحمل تعليقات متكررة وتحرش بدني من الرجال في الشوارع والأماكن العامة في مصر، فهن في الخليج يمكنهن السير على الكورنيش وفي المولات دون التعرض للإزعاج أو القلق، (10) وإذا طرأت مشكلة تكون الشرطة منحازة إليهن. الحراس الذكور على النقيض، كانوا يشعرون بالحرمان من إمكانية تلطيف الحياة اليومية من خلال المعاكسة.

وأنا جالس في ساحة انتظار السيارات وراء بنك إيستاسيا مع لوكراج وتوفيق وسيف ذات مساء، انضم إلينا مشرف نيبالي ليشرب سيجارة. مضت إلى جوارنا موظفة أو زبونة للبنك، فراقبها الرجال وهي تمر في صمت. ما إن

رحلت حتى راح المشرف يؤنب الحراس لأنهم لم ينتبهوا إليها بالقدر الكافي:

"لماذا لم تقولوا للسيدة التي مرت أنها جميلة؟ ألستم مهتمين بالسيدات؟ عليكم الحديث إلى السيدات وإخبارهن بأنهن جميلات. لا أقصد السيدات اللائي يرتدين العباءات [أي القطريات] لكن الأخريات، هن من يحببن سماع هذا الكلام، يجعلهن سعيدات".

سيف، في تردد: "يمكن أن أقول ذلك الكلام إلى الفلبينيات فقط، لكن ليس إلى جنسيات أخرى".

المشرف: "لا، كل السيدات يعجبهن هذا الكلام".

ونحن نسير عائدين إلى بنك أوشينيا، قال لي توفيق الذي كان قد التزم الصمت:

"الكلام مع الستات هنا خطر. قال لنا نروح نكلم الست بس مراحش هو يكلمها ليه؟ كان خايف وعايز يبعتنا إحنا بداله".

لكن في حين يتعرض العمال لتعامل شرطي صارم من الدولة القطرية من أجل احتواء طاقتهم الجنسية الخطيرة، عادة ما يرون أنفسهم أكثر تحضرًا وأخلاقية من القطريين. قبل هذه المناقشة مباشرة، حدثني لوكراج عن أشياء كثيرة يراها غريبة في قطر. أغرب شيء بالنسبة له هو مكانة النساء:

"لهؤلاء الناس ثقافتهم ولي ثقافتي، ولا شأن لي بهم، لكن أجد حال النساء هنا غريبًا جدًّا. عليهن جميعًا أن يرتدين الحجاب، ويمكن لرجل واحد أن يتزوج أربع سيدات - أربع! لكن لا تتزوج السيدة إلا رجلاً واحدًا. أجد هذا غريبًا جدًّا".

وجد لوكراج ممارسات تعدد الزوجات والحجاب الإسلامية غريبة ومريبة. لكن الحراس المصريين بدورهم أغلبهم مسلمون وليست لديهم مشكلة في تعدد الزوجات والحجاب، لكن يجدون أخلاق القطريين الجنسية وعلاقاتهم

الجندرية غريبة وأدنى درجة من أخلاقهم وعلاقاتهم الجندرية. قبل ذهابي إلى قطر كنت على علم بأن المصريين عادة ما يرون أنفسهم الشعب الوسطي متوسط الحال المفارق لما يرونه من غرب يفتقد للأخلاق على جانب، وعرب خليجيين منافقين يتحدثون عن القيم المحافظة ولكن يتصرفون كالحيوانات، على الجانب الآخر. لكن ما أدهشني في قطر، هو أن العديد من الرجال المصريين وصفوا أنفسهم صراحة بصفتهم "رومانسيين" و"مثقفين"(11) مقارنة بالقطريين.

ذات مرة تم فتح هذا الموضوع، مساء زيارتي أنا وتوفيق لعمرو في مكان عمله في اتحاد الكرة. بعد انتهاء وردية عمرو، اقترح أن نسير إلى مسكنه بدلاً من ركوب ميني باص الشركة. مضى بنا إلى "حديقة الأسرة"، وهي حديقة كبيرة كانت "للعوائل فقط" كل يوم. كان يعرف الحديقة جيدًا لأنه عمل بها فترة قبل نقله إلى اتحاد الكرة. كانت ساعة متأخرة من المساء، والحديقة ممتلئة بالأشخاص الوافدين للاستمتاع بنسمة هواء باردة. بعد دخولنا بقليل أوقفنا حارس قال لنا بتهذيب إن الحديقة للعوائل فقط. كنا ثلاثة، ولم يساعدنا شكلي هذه المرة. لكن عمرو أظهر له كارت شركته، ولأن نفس الشركة تحرس الحديقة، تلقينا ترحيبًا ودودًا من الحارس ومضينا في طريقنا.

ونحن نسير على تل اصطناعي، أشار عمرو في هدوء إلى حبيبين، يرتديان ثيابًا قطرية، بيضاء وسوداء، متقاربين. ونحن نمضي في طريقنا قال لنا:

"رغم إن الحديقة دي للعائلات، تلاقيها مليانة حبيبة برضه. عشان شغال حارس كنت بأشوف هنا حاجات كتير. وهي مشكلة كبيرة هنا. بنوا المولات والجناين وبعدين ييجي الحبيبة ويستغلوها، لكن هنا الكلام ده غلط، عشان ضد العادات والتقاليد. هنا بيطبقوا الشريعة الإسلامية بالكامل. في مصر ده طبيعي مفيش مشكلة. في مصر لو سموا جنينة "حديقة الأسرة" الكل هيعرف على طول إنها للحبيبة. رغم إني راجل شرقي وممكن أخاف برضه حد يعمل حاجة زي كده في جنينة مع أختي مثلاً. لكن الرومانسية وإن الحبيبة يروحوا

الجنينة والكلام ده كلام طبيعي في مصر، الدنيا كده. لكن هنا موضوع الستات ده متشددين فيه جامد. والستات هنا سخنين جدًا وعندهم رغبة جامدة، لكن الرجالة باردين. معندهمش ثقافة الرومانسية والكلام ده. هنا الأزواج معندهمش رومانسية ناحية ستاتهم. لما راجل قطري ينام مع مراته . . . يخلص بسرعة، ويسيب مراته تعبانة مش مبسوطة. معندهمش شغل الرومانسية اللي عند المصريين. عشان كده بيقولوا على الرجالة المصريين: البصة منه ممكن تخلي الست حامل".

استرسل عمرو في حكاياته عن الأشياء العديدة التي شهد عليها في الحديقة. وهو يحكي راح يغزل تحيزاته والشائعات بمشاهداته (انظر أيضًا Andrew Gardner 2012a). أما أنا فلا أكرر كلامه هنا بسبب صحته أو عدم صحته، بل إنما كإشارة لنظرة العمال للمجتمع القطري من خلال وضعهم فيه. فكيف يعرف عمرو حقًا طريقة القطريين في ممارسة الجنس؟ الأهم في كلامه رسمه صورة مثالية للذكورة المصرية المثقفة الرومانسية التي لا تُقاوم والتي - في رأي الحراس المصريين - تميز الرجل المصري عن غيره من الرجال. وأخيرًا، حكى علينا حكايات إيروتيكية من النوعية التي يكثر تداولها في أوساط الرجال المشتاقين للتواصل مع النساء.

هناك رجال مصريون كثيرون متعاطفون مع الفصل الجنسي الصارم والأخلاق المُلهمة بأفكار الدين في الخليج. لعبت الهجرة إلى الخليج دورًا أساسيًا في الصحوة الإسلامية في مصر التي بدأت في السبعينيات. لكن كما أظهرت لوسيل جرونتس (2012a) في بحثها عن المهاجرين المصريين العائدين من الخليج، فالكثير من المهاجرين تسلحوا أيضًا بهوية قومية في مواجهة الأخلاق الخليجية. ولأن نظام العمل في الخليج عنصري بشكل جندري وجنساني، فإن السبل التي يميز بها المهاجرون أنفسهم عن المجتمعات الخليجية هي سبل جندرية وجنسانية كذلك (Andrew 2012a).

لكن ثمة ما هو أكثر من نظام العمل والهوية القومية في التقاطعات بين عمل

المهاجرين والجندر والجنسانية. مشروع العمال المهاجرين بأسره مدفوع بالجندرية والجنسانية. الرجال يعملون في وظائف مثل وظيفة حارس الأمن في بلد مثل قطر لأنهم بحاجة لادخار نقود من أجل بناء أسرة، أو لأن لديهم أسرة يعيلونها. ومن أجل هذا، عليهم أن يعيشوا في حالة قهرية تكون أقل من الحياة الحقيقية، تبث الاضطراب في إحساسهم بالرجولة وهي نفس الرجولة المتوقع منهم إظهارها وإنشائها من خلال القدرة على كسب النقود والعودة بها إلى الوطن ومعهم مدخرات جيدة. يؤدي بنا هذا إلى قضيتين تكمنان في القلب من الهجرة والأحلام: الفلوس والزواج.

10- لا يعني هذا أنهن لا يتعرضن للإزعاج والقلق في سياقات أخرى. أخبرتني سيدة مصرية عملت في مهنة الطب بالسعودية من قبل بأنها كانت تواجه تحرشًا جنسيًّا دائمًا من الزملاء والمشرفين الذكور في العمل.

11- عند استخدام "مثقفين" في سياق العلاقات الرومانسية والجنسية، فهي كلمة ذات محمل جنسي، تعني التمكن من فن الغزل والتعامل الجنسي. وبناء على المنطق نفسه كان اسم الفيلم المصري الشهير "فيلم ثقافي".

الفصل السادس: كل شيء هنا يدور حول الفلوس(12)

أعرب الحراس عن تقديرهم لعالم الهايبر-واقع الفانتازي القطري بشكل ينطوي على التناقض والازدواجية. رغم أنهم أخبروني كثيرًا أن قطر ليست أفضل بلد خليجية وأنها على أفضل تقدير نسخة مقلدة درجة ثانية من دبي وأبي ظبي، فقد أعربوا أيضًا وبشكل صريح في أحيان كثيرة عن إعجابهم بمشاريع الحداثة المفرطة الهائلة، والفضاءات البراقة المخصصة للاستهلاك، والشوارع النظيفة، والنظام والأمان، وبالطبع وفرة الثراء الذي تستعرضه قطر. لكن هذا التعبير عن الإعجاب كان يختلط عادة بالتعبير عن الانتقاد الحاد، المرتبط بدوره بالإحساس بالغربة. سمعت عدة تنويعات على لحن كيف أن البلد بأكملها نموذج محاكاة مصطنع. وصْف توفيق لفيلاجيو مول بصفته "ترومان شو" هو من التنويعات على هذا اللحن. وهناك تنويع آخر استعرضه "بوبال"، الحارس من نيبال الذي كان يحتل مكتب الاستقبال في بنك أوشينيا، والذي أراني ذات يوم صورًا على هاتفه المحمول لجبال ووديان خضراء في نيبال. قال لي:

"لا أحب هذا المكان. كل شيء هنا يدور حول الفلوس. والمكان كله صحراء، لا وجود للون الأخضر. في نيبال كل شيء أخضر، وفي الربيع ترى الزهور كلها في الحقول والغابات الخضراء، وفي الأفق ترى الجبال البيضاء. نيبال بلد فقيرة كما تعرف، لهذا أنا هنا. أين أذهب غير هنا؟ لكن هناك، فإن أفقر الناس عندهم طعام طيب وطازج. حتى إذا كنت فقيرًا، ستجد عندك حقلاً تبيع منه الخضراوات في السوق. والخضراوات طازجة، تأتي من الحقل مباشرة. الحليب طازج، من الجاموسة. هنا يبيعون الحليب ذو مدة صلاحية لعشرة أيام. الطعام هنا مصطنع ومليء بالكيماويات. الناس هنا يقولون إنهم يشعرون بالجوع بعد تناول الطعام بثلاث ساعات. يشعرون بالجوع طوال الوقت لأن الطعام هنا هزيل. تأكل لكن تبقى جائعًا. إذا فركت الدجاج الذي يبيعونه هنا

بين أصابعك يتحول إلى تراب."

يربط بوبال بين العالم المصطنع غير الحقيقي في قطر والانتشار الدائم للنقود كقوة محركة ودافعة لكل شيء. وهي شكوى سمعتها مرارًا من الحراس، سواء من مصر أو نيبال: الفلوس تحكم كل شيء، ومعنى الحياة تقلص إلى جني النقود وادخارها وإنفاقها.

الزعم بأن "كل شيء هنا يدور حول الفلوس" هو أكثر من مجرد انتقاد. هو إقرار بواقع وجود العمال في قطر. أثناء مناقشة من المناقشات الكثيرة التي شهدت عليها حول ما إذا كانت قطر مكانًا جيدًا أم سيئاً وما إذا كان القطريون محترمين أم لا، قال جرجس:

"انهاردة في شغلي اتنين اختلفوا مع بعض. واحد شايف إن الخليج كويس والتاني شايفه وحش. الأولاني بيكسب عشر ألاف ريال والتاني ألف ريال".

عندما اشتكى العمال من أن كل شيء هنا يدور حول الفلوس، كانوا يعرفون ما الذي يتحدثون عنه تمامًا. في حياتهم تحديدًا، كل شيء حقًا يدور حول الفلوس. الفلوس هي التي جاؤوا لأجلها إلى هنا.

ومن القضايا التي يتكرر فتح المناقشات حولها هو ما المبلغ الذي يجنيه هذا وذاك من الناس. كان الحراس يعرفون رواتب وأجور العمال من مختلف المستويات في الشركة، وما يدفعه البنك للشركة، ورواتب الموظفين في البنك، ورواتب المدراء في البنك، ورواتب عمال النظافة في البنك. كانوا يعرفون مقدار أجور الحراس في الشركات الأخرى، ورواتب الحراس في الإمارات. لم يجد أي منهم إحراجًا في سؤال: كم تربح هنا؟ ذات مساء، ونحن في طريقنا إلى سوبر ماركت صغير قريب من المسكن لشراء عصائر، سألني علي زميل توفيق في السكن:

"ليه متجيش تشتغل هنا؟ ؟هتكسب فلوس كتير!"

صامولي: "وليه آجي؟ أنا عندي شغلانة حلوة في ألمانيا بآخذ منها مرتب معقول وحياتي كويسة"

علي: "بتكسب كام؟"

صامولي: "حوالي ألفين يورو. لو هنحسبها بالقوة الشرائية يعني تعادل حوالي سبع آلاف ﷼ هنا."

علي: "لكن هنا ممكن تكسب أكتر بكتير. فيه ناس في البنك بيعملوا عشرين ألف وستين ألف وممكن حتى أكتر من ميت ألف ﷼! ممكن تاخد أي وظيفة أو تفتح شركة، وتشتري لك فيلا وعربية كبيرة وتعمل فلوس كتير. فيه أوروبيين كتير هنا جايين عشان الفلوس الكويسة. والأوروبيين هنا بياخدوا مرتبات تلات أضعاف مرتبات المصريين".

أوضحت لعلي أنني لا أريد تغيير حياتي الجيدة في برلين بأسلوب حياة في قطر ولو مقابل كل نقود العالم، لكنه لم يقتنع:

"طب ما ممكن تيجي تشتغل هنا سنتين وتحوش فلوس وبعدين ترجع."

صامولي: "هتبقى سنين ضايعة من حياتي. شفت مهاجرين كتير مرجعوش عشان بقوا معتمدين على دخلهم واتعودوا على أسلوب حياة معين".

فهم علي قصدي لكنه استمر في حديثه عن الأوروبيين الذين يهاجرون إلى قطر. لماذا يحضرون وهم أصلاً من بلاد غنية؟ لاحظ أنه عندما يأتي الأوروبيون إلى قطر، فأول شيء يفعلونه هو شراء سيارة "هامر". وظل غير مقتنع تمام الاقتناع بأسباب عدم رغبتي في المعيشة في قطر رغم أن لي امتيازات كبيرة إذا انتقلت إليها، مثل الحصول على ثلاثة أضعاف المرتب مقابل نفس العمل.

فكرة أن الهجرة للعمل هي الهجرة من أجل الفلوس تبدو فكرة طبيعية تمامًا.

لولا النقود ما جاء الرجال المصريون والنيباليون الذين قابلتهم إلى قطر. لكن هيمنة حسابات الدخل والنفقات والمدخرات على حياتهم ومناقشاتهم تبدو مختلفة بشكل صارخ عن الحياة اليومية في مصر، حيث لا تُناقش الفلوس إلا في الخفاء، وحيث لا يتكلم الناس طوال الوقت عن الفلوس رغم أنه همّ دائم في حياتهم اليومية. كما يختلف الموضوع عن كيف راح الشباب يخبرونني عن دوافعهم للهجرة. بالطبع الفلوس دافع مهم – عادة ما يكون الأهم – للهجرة. لكن توازيها دائمًا رغبة في جمع الخبرة، وفي خوض حياة أكثر إثارة، وفي الاستمتاع بقدر أكبر من الحرية، وفي الحصول على حقوق (Schielke 2015: 158-160). فضلاً عن ذلك فإن الفلوس التي يحلم بها الشباب قبل أن يسافروا نادرًا ما وصفت من منطلق المكاسب والخسائر. إنما يتكلم الشباب عنها بكلمات مبهمة فضفاضة مثل "الثروة" التي يمكن أن يجمعها المهاجر من العمل الشاق لسنوات قليلة، ثم يعود بها إلى بلده و"يبني حياته".

إن واقع الهجرة للعمل تضيق من الهوامش التخيلية للحرية والإثارة وجني الثروة، إلى حسابات الدخل والنفقات، وسؤال عن كم من الفلوس يمكن أن تدخر هذا الشهر، وما إذا كنت ستدخر ما يكفي على مدار مدة العقد، وهل يجب تمديد العقد لمدة إضافية. من النادر جدًا أن يدخر المهاجرون مقدار ما كانوا يطمحون إليه. ظروف العمل والحياة أشد قسوة، وكلفة المعيشة أعلى، ونظام العمل أكثر قمعًا مما كان يتخيل الشباب قبل سفرهم. والأحلام التي كانت تراود العامل تنتمي إلى مكان وزمان مختلفين. هنا، أثناء العمل في هذه "الديستوبيا" كما وصفها توفيق، كل شيء يدور حول الفلوس، لأن الفلوس هي سبب الوجود هنا، لأن من الصعب الحصول على ما يكفي منها، ولأن هناك آخرين يحصلون على الفلوس بكثرة.

هذه تجربة شديدة الازدواجية. الفلوس قوة وجودية تجعل الأشياء ممكنة. أن يكون معك فلوس فهذا يعني حرية واختيار. وفي مكان استهلاكي سلعي تمامًا مثل قطر، يدرك من يعيش فيه أن الفلوس هي شكل السلطة والقوة الوحيد. ما

لا يمكن حسابه بأوراق البنكنوت يعز على التخيل، مثل تعجُّب "علي" من إصراري على أنني لا أريد أن أعيش في قطر. ولكن داوم العمال على الشكوى أمامي من أنهم ليسوا أحرارًا، وأن لا خيار أمامهم، وأن بدلاً من أن يعيشوا كما يشاؤون فهم ليسوا إلا عبيدًا.

12- في النص الإنجليزي استخدمت كلمة money التي يمكن ترجمتها إلى العربية بالمال أو بالفلوس، ومع أن الغرض الأساسي من الهجرة للعمل هو جمع المال عامة بما فيه من فلوس سائلة وعقارات وغيرها، إلا أن في هذا الكتاب اخترت الترجمة بـ"الفلوس" لأن المال الذي يكسبه العمال يأتيهم أولا في صيغة الفلوس وبعد ذلك يتحول إلى أنواع أخرى من المال.

الفصل السابع: الأشياء التي لا بد أن تشتريها الفلوس

طبقًا لمقال جيورج زيمل (Georg Simmel) (1989) المشهور عن الفلوس، فالفلوس تخلق الحرية إذ تجعل علاقات الاعتمادية بين الناس معقدة ومجردة وغير ملموسة، فتنتج حريات كثيرة لكن في الوقت نفسه تجعل الروابط الاجتماعية أضعف. وبحسب زيمل، فالفلوس تخلق الاختيار ومعه أيضًا الاغتراب (alienation).

العمال المهاجرون يعانون من الاغتراب، وفي الوقت نفسه ليست أمامهم خيارات عديدة متوفرة. كانت خياراتهم محدودة أصلا لحظة تقدمهم إلى مكاتب العمالة في بلادهم. وبعد بدء عملهم لا يمكنهم اختيار البحث عن وظيفة أخرى بسبب نظام الكفالة. الاختيار المتاح أمامهم؛ هو إما العمل حتى انتهاء العقد، أو العودة إلى الوطن خاسرين خاوين الوفاض. والأهم، أن لا خيار عندهم في الأغراض التي ينفقوا فلوسهم عليها.

في استعراض بيل موررير (Bill Maurer) (2006) لأنثروبولوجيا النقود أشار لأن واقع النقود أقل تجريدًا في أحيان كثيرة من رؤية زيمل للموضوع، لكونها مرتبطة بأخلاق وأغراض بعينها، وبأشياء معينة لا بد من شرائها بالفلوس. والأمر نفسه ينسحب على الفلوس التي يجنيها المهاجرون. بعيدًا عن كونها مصدرًا مجردًا للاختيار، فإن فلوس المهاجرين مرتبطة أشد الارتباط بغرض بعينه، وهي أيضًا ذات بُعد جنساني (انظر أيضًا Andrew Gardner 2012b).

ذات يوم بعد العصر، حضر توفيق ليأخذني من مقهى كنت أكتب فيه مذكراتي، وقال: "تعالى نروح الصرافة". كان يوم حصوله على أجره. ذهبنا إلى ماكينة صرافة البنك الذي فيه حسابه. كان في حسابه 1144 ريالاً، وسحب منها 1100 ريال. لا تُخرج الماكينة عملات أقل من ورقة الخمسين ريالاً. بالنقود في جيبه،

مضينا إلى منطقة تجارية قريبة معظم روادها من العمال المهاجرين. هناك دخلنا مكتب وكيل لويسترن يونيون مجهز بمكاتب مختلفة لإرسال النقود لمختلف الدول. عند مكتب التحويلات إلى مصر ناول توفيق بطاقة العميل الخاصة به وبطاقته الشخصية للموظف وعمل تحويل بمبلغ 1500 جنيه مصري إلى خاله. وبالرسوم (التي كانت معقولة، لا تزيد عن 15 ريالاً) أصبحت التكلفة بالكامل 1023 ريالاً، فتبقى مع توفيق 77 ريالاً ينفق منها باقي الشهر. لا يحتفظ توفيق بأي مدخرات معه. الخال بدوره ينقل النقود إلى والدة توفيق، التي تستخدم أغلب المدخرات في بناء طابق جديد في بيتهم الصغير في القرية. (هذا الطابق الجديد سيتحول في نهاية المطاف إلى شقة يتزوج فيها). في شهور أخرى كان يرسل نقودًا أقل. عادة فإن أول ما يفعله يوم الحصول على أجره هو سداد ديونه في المتجر الذي يشتري منه طعامه، لكن المتجر الذي كان يرتاده أغلق أبوابه، ولم تكن عليه ديون يسددها هذه المرة. الشهر الماضي لم يرسل أي نقود لأنه أنفق كل نقوده الزائدة على هدايا أرسلها معي إلى أسرته. قال لي إنه يشعر بالذنب لأنه لم يرسل نقودًا الشهر الماضي، ولهذا أرسل أغلب راتبه هذا الشهر، بسرعة قبل أن يتمكن من إنفاقه. أخبرني أنه يمكنه اقتراض بعض النقود ليدبر أموره حتى آخر الشهر، وأضاف: "محدش هنا بيموت من الجوع".

أثناء السنتين التي قضاها في قطر، اشترى توفيق لنفسه شيئين: لاب توب وهاتف محمول. باقي النقود كان يرسلها على هيئة هدايا إلى أسرته، ولتنفق منها والدته، ولبناء الطابق الجديد. في المهمتين الأخيرتين لم يكن هو المساهم الوحيد. فأول طابقين من البيت شُيدا بالأساس بفلوس أرسلتها أخته التي كانت تعمل ممرضة في السعودية. لا تملك أسرة توفيق أي أرض وليست لديها واسطة تمكن أبناؤها من الحصول على وظائف ذات رواتب معقولة (ناهيك عن الوظائف ذات الرواتب الجيدة) في سوق العمل المصري الذي يعاني من المحسوبية البالغة. من أجل البناء أو الزواج، أو عمل أي شيء يزيد عن الكفاف، فالطريق الأوضح المتوفر له ولأخته كان العمل في الخارج.

ربما كان توفيق ليتمكن من جني بعض الفلوس في مصر أيضًا، وإن كان لا يؤمن بإمكانية هذا، قائلاً لي أكثر من مرة قبل أن يغادر إلى قطر أن: "المشروع الوحيد اللي ينفع في مصر هو إنك تسافر". على كل حال، كانت خياراته حول علام ينفق فلوسه قليلة. بعد أن تبين أن خططه الأساسية بجعل قطر نقطة انطلاق للهجرة إلى الغرب غير واقعية، لم تعد أمامه خيارات سوى تحقيق أكبر استفادة من موقفه بأن يدخر أكبر قدر ممكن من الفلوس من أجل "بناء حياة".

وليس بناء الحياة بالأمر الذي يمكن للمرء أن يفعله كما يشاء. هو مسار محدد مسبقًا، متفق عليه تمام الاتفاق، عبارة عن خطوات محددة على الرجل أن يخطوها، وكل هذه الخطوات ترتبط تمام الارتباط بشكل أو بآخر بمسألة الزواج.

في مناسبة من المناسبات القليلة حين جلست مع توفيق على مقهى في وسط الدوحة لمقابلة أصحابه وزملائه – وهو ترف ما كان ليقبل عليه لولا زيارتي له – انضم إلينا زميله عبد الوهاب. كان عبد الوهاب لم يحلق ذقنه منذ أيام، ما يعني أنه لم يعد يعمل (فالحراس في ورديات العمل يجب أن يكونوا حليقي الذقن). قال لي إنه استقال قبل أيام بعد خلاف في العمل. الآن هو في انتظار إتمام أوراقه حتى يغادر. لم يقل ما حدث بالضبط، لكن أعلن أنه نال كفايته. وليست المسألة مقتصرة على الشركة الكفيلة أو النظام؛ هو تعب ومل من المجتمع العربي بأسره.

تحدث كثيرًا، مخاطبًا إياي أغلب الوقت:

"إنت بتدوّر على أيه بالظبط في البحث بتاعك؟ آمال ومطامح وإحباطات كل واحد فينا؟ الأفكار اللي عند كل واحد فينا مختلفة، والناس في المدن وفي الريف عندهم سياقات مختلفة للحياة، ونفقات معيشة ومعايير معيشة وسكن مش قادرين يلاحقوا على تحقيقها. . [أوضح لي كلفة شراء شقة في المدينة ولماذا الإيجار ليس بالخيار الجيد]. لكن المشترك اللي بيدفع الناس في مصر

للهجرة هو الحاجة للجواز، وتكاليفه. الشاب اللي عنده 21 سنة في مصر مش مستني يتجوز قبل ما يتمّ 30 سنة بسبب التكاليف في كل خطوة من الخطوات، من أول الخطوبة للشبكة للشقة للمهر للفرح. المشكلة إن في كل خطوة بتدفع فلوس. أنا خاطب، بس دي خطوة واحدة بس، وقدامي لسه خطوات مكلفة كتير. فلوس الجواز هي الشيء اللي الكل بيدور عليه. مفيش اختيارات. في أوروبا الموضوع مختلف، مش ضروري الناس تتجوز، وممكن اتنين يعيشوا مع بعض من غير جواز، والناس مش شاغلة دماغها بالخلفة زي في الوطن العربي، اللي هتلاقي كل حاجة فيه حوالين الخلفة. ومش خلفة بس: لازم يكون عيّل، يعني ولد، مينفعش بنت. ممكن الناس المتدينة جدًا تقبل بموضوع البنت عشان دي إرادة الله وكده، لكن غير كده الناس بتتضايق، على عكس أوروبا، اللي الناس فيها بتفرح بالعيل، ولد ولا بنت مش فارق، ومتلاقيهمش مشغولين بالحفاظ على اسم العيلة. وممكن تتجوز، وممكن تعيش من غير جواز، وممكن تخلف أو متخلفش، فيه اختيارات. هنا في الوطن العربي مفيش اختيارات.

متفتكرش إني بقول الكلام ده عشان بأتفرج على أفلام أمريكاني. أنا عرفت هنا حاجات كتير من معاشرتي للفلبينيين والتايلانديين والألمان والأمريكان، وكل الناس، هتلاقي لكل مجموعة منهم أسلوب حياة. عندي صحاب فلبينيين كويسين جدا وبحب طريقتهم في الحياة، رغم إنها مختلفة جدًا عنا. وصعب عليّ كمان أغير طريقة تفكيري بحيث أفهمهم. بيننا مثلاً صعب يبقى فيه صحاب وسطنا رجالة أو ستات "جاي"، في أوروبا ممكن يكون ده طبيعي، لكن في الوطن العربي الحكاية دي هتخلي الصداقة صعبة جدًا، لو كنت تعرف واحد أو واحدة "جاي".

هنا، ناس قليلة قوي بتفكر في الأسئلة اللي من النوع ده. لما أرجع مصر وأحاول أتكلم معاهم مش بيفهموني، يقولوا لي: "أنت بتقول إيه؟" كل اللي شاغلهم الحشيش، ومتابعة أخبار الكورة، والفرجة ع التلفزيون، على فيلم

عربي ولا أمريكاني ولا هندي. . أي حاجة إلا السياسة. أو ممكن يتكلموا في السياسة بطريقة ممنهاش فايدة متوصلش لحاجة. تبقى محظوظ لو لقيت واحد من كل ألف قادر يعمل حاجة مفيدة بعقله".

وجهة نظر عبد الوهاب استثنائية لأنه شدد على حجم ما تعلمه من أساليب حياة الناس الآخرين الغريبة والمهمة له أيضًا، ممن يعمل معهم في قطر. وهي استثنائية أيضًا لأنه شكك في مبدأ "الخلفة" - أو "خلفة الأولاد" - التي تعد ذات قيمة عالية ومرتبطة ارتباطًا كبيرًا بتحقق الرجولة والأنوثة على السواء في مصر والوطن العربي. خبرته من الحياة في قطر كشفته على طيف عريض من الأحلام، دون سبل عملية لتحقيقها، ليجد نفسه بصدد ضرورة السير على الدرب المتاح أمامه. أغلب الشباب الآخرين كانوا أكثر تعاطفًا مع المسار المتفق عليه للتكوين الاجتماعي والأسري. لكن بغض النظر عن رأيهم في هذا المسار، فقد كانوا جميعًا عرضة لنفس الاضطرار. في مصر (مثل أغلب الدول العربية) تعد نفقات الزواج فلكية، والعريس مسؤول عن الشق الأكبر من النفقات ويشمل المهر والهدايا والشقة والأثاث والأدوات المنزلية وحفل الزفاف. الزواج في العادة هو أكبر استثمار في حياة أي شخص. وفي الوقت نفسه، يعتبر الزواج مسألة حتمية وضرورية؛ فالبقاء بدون زواج ودون أطفال يعد فشلاً ذريعًا. من ثم، فلا بد أن الكل ينفق طاقة هائلة على الزواج - إن كانوا متحمسين له أم لا، إن أسعدهم شروطه أم لا، ورغم معرفتهم بأنهم ربما سيتزوجون في النهاية من إنسانة لن يكونوا سعداء معها. يتعقد الأمر أكثر من واقع كلفة الزواج الباهظة التي تزيد باستمرار، على الأقل في المناطق الريفية، لأن العمال المهاجرين يمكنهم عرض فلوس أكثر وشروط مادية أفضل عن التي يقدمها غير المهاجرين. هذا هو الغرض الذي يُنفق عليه فلوس الهجرة.

وما إن يتزوج المهاجر، لا تنتهي هذه الحالة. إنما تصبح دائمة عندما يحتاج الآباء للاعتماد على عمل الهجرة لفترات مطولة للإنفاق على أسرهم في بلدهم. الغرض الأخلاقي من الفلوس كوسيلة لبناء أسرة والإنفاق عليها هو غرض دائم

لا عابر، لكن الفلوس نفسها ليست دائمة. لا وجود لها إلا طالما استمرت في التدفق.

الفصل الثامن: الحلم بالحتمي

أثناء زيارتي وتوفيق إلى إسكان النصر حيث وقع الاحتجاج، تطور نقاش بين الرجال الذين يتشاركون في الحجرة حول هل كان المجيء إلى قطر للعمل يستحق التعب، وما مقصدهم المفضل إن لم يكن قطر. قال أحدهم، ويُدعى رزق، أنه كان يريد الذهاب إلى أوروبا، لا الخليج. كان قد ذهب إلى ليبيا على متن حافلة، وكان يريد الذهاب من هناك إلى إيطاليا في قارب صيد، ثم سمع بأن عشرات المصريين غرقوا في محاولة لعبور المتوسط. نزل من الأتوبيس وعاد إلى بلده، ثم قرر الذهاب إلى الخليج، كمكان أكثر أمنًا. آمن لكن بائس، كما أوضح: "هنا كمان مش بنكسب غير اللي يكفي العيشة يا دوب". استفز كلامه هذا سيف:

"أيوه إحنا بنعيش الحمد لله رب العالمين، لكن هل إحنا بنعيش؟ هل إحنا بنعيش هنا؟! دي مش حياة!"

تطور النقاش بين سيف ورزق حول جدوى كل هذه المشقة من أجل كسب الفلوس للمستقبل. كان رزق متفائلاً ويرى أن الأمر يستحق. في حين رأى سيف أن المسألة نصب، لأن في النهاية تتأخر الفلوس كثيرًا، بعد أن يكون الناس فوق سن الثلاثين ولم يتزوجوا، وتضيع فرص كثيرة أثناء العمل في الخارج:

"المشكلة إن مفيش بديل. في مصر لو عايز تعمل حاجة، لو عايز تبني حياة، لازم يبقى معاك فلوس، وعشان كده بتهاجر. لكن الفكرة دي بتفشل هنا. أنا محققتش حاجة هنا، بالعكس ده أنا رجعت خطوة لورا. مقدرتش أحقق أي حاجة على المستوى المادي، لكن على الأقل كسبت خبرة".

في مصر، كان سيف يعمل مدرسًا للفرنسية في مدرسة حكومية. قال إن حقائبه كانت ممتلئة بالكتب لا بالملابس. حضر إلى قطر بحثًا عن عمل أفضل، لكن ها هو الآن، محاصر في وظيفة الحارس لسنتين أو ثلاث سنوات. اختلف

معه رزق: "كلنا كنا عارفين الشغل اللي جايين عليه هنا". أبدى سيف تشككه:

"لا، الناس مش عارفة يعني إيه الواحد يبقى هنا في الخليج. كل اللي يعرفوه إن الخليج فيه فلوس. لما تيجي هنا الناس بتبقى مستنياك تقعد شوية وبعدين ترجع عامل فلوس. لكن الحقيقة مختلفة. وأنت هنا بتفوتك فرص أحسن كان ممكن تجيلك في مصر. لكن مينفعش ترجع على طول. لو رجعت بدري الناس هتقول عليك مش راجل وإن وشك فقر. عشان كده بنحاول نستحمل سنة سنتين ولا تلاتة. أبويا وأمي ميعرفوش أيه الشغل اللي باشتغله هنا. ميعرفوش غير إني شغال في بنك وإن الفلوس قليلة".

هناك ضغوط هائلة للتصديق في حلم الثراء السريع عن طريق الهجرة، والمهاجرون في شتى أنحاء العالم يرزحون تحت عبء ضغط هائل لتأكيد هذا الحلم (Alpes 2012; Andrew Gardner 2012b; Swarowsky and Schielke 2009; Swarowsky 2014; Pelican 2014). الشباب الذين لم يهاجروا أبدًا ويحلمون بالهجرة كثيرًا ما يرون ظرفهم الراهن مملاً، ليس إلا عدم مُحبط، حالة من الانتظار الأجوف تبدو فيها الهجرة هي المسار للخروج من العدم إلى الإنتاجية (Graw 2012, Schielke 2015). إن نصحت شابًا في قرية مصرية ألا يحلم بالهجرة وكأنك تنصحه ألا يأمل في شيء. وكيف لا يؤمن بذلك الحلم في مواجهة واقع لا يُنكر من الزيجات المرتبة والبيوت المبنية بفلوس المهاجرين؟

هذا الضغط على الأمل يجعل التواصل بشأن تجربة الهجرة مسألة صعبة. من المألوف ألا يعرف الآباء المصريون طبيعة العمل الذي يؤديه أبناؤهم في الخارج (بالنسبة للبنات، فهم يرغبون أكثر في المعرفة). الجزء الوحيد من حياة الهجرة الذي يراه الناس في الوطن هو المهاجر العائد إلى وطنه في إجازة أو مع انتهاء عقده. في تلك المناسبات يصبح المهاجرون تحت ضغط إظهار النجاح من خلال الإنفاق بسخاء، وتقديم الهدايا، والثياب الجميلة. هناك هالة من النقود والنجاح تصاحب المهاجر العائد، بغض النظر عن ظروفه الحقيقية

الخاصة بالعودة. هناك أمثلة وأغانٍ بلا حصر عن مصاعب الغربة وحنين المهاجر إلى الوطن. ومن الحين للآخر تظهر تقارير إعلامية تتحدث عن حالات معينة من الإجحاف الذي يواجهه المصريون في الخارج (Cantini and Gruntz 2010). لكن الإفصاح عن المصاعب الشخصية التي يواجهها المهاجر وظروف عمله مسألة أكثر صعوبة. لا يشعر المهاجرون بالراحة في الإفصاح عن هذه الأمور لأنهم لا يريدون أن يقلق عليهم آباؤهم، ولأنهم يريدون أن يظهر عليهم النجاح أمام أقرانهم وأمام العرائس المحتملات. وعندما يحاولون الإفصاح يجدون في العادة أن الناس لا يريدون أن يصدقوهم، ربما خوفًا من تحطم حلم الهجرة الذي لا يمكن أن يستغنوا عنه. المهاجر الذي يتحدث عن الظروف الصعبة والراتب المتدني يُشتبه في أنه يحاول إخفاء الثروة التي راكمها. جزء من هذا التشكك له أساس من الصحة. فمثلما يعود أشخاص مصحوبون باستعراض كبير للنجاح وجيوب خاوية، فهناك آخرون يرجعون وهم يتحدثون عن أن السفر لم يجلب ما يكفي لسداد الديون، ثم تجدهم بعد سنوات قد شيدوا بيتًا بالنقود التي ادخروها واحتفظوا بها سرًا. المجتمع المصري يعتمد بشدة على عمل المهاجرين، لكن لا يعرف إلا أقل القليل عن كيف يعمل المهاجرون حقًا. ثمن فلوس الهجرة معروف بشكل عام، لكن الصمت يعم عندما يتعلق الأمر بالتجارب الفردية للمهاجرين.

كان الرجال المتجمعون في حجرة مسكن النصر يعرفون كل هذا تمام المعرفة. قالوا لي أنهم لن يخبروا الناس في مصر بما يخبروني ويخبرون بعضهم البعض به. سوف يلعبون دورهم في الحلم الذي نُصب لهم، حلم سيقومون بدورهم بتمريره إلى الآخرين. سوف يتزوجون بالنقود التي ربحوها وسوف يكونون صورة للنجاح المتوقع منهم، ومن ثم سوف يدفعون آخرين إلى السير على خطاهم. سوف يتركون الكلام عن ثمن الحلم للأمثال الشعبية والأغنيات، ولباحث الأنثروبولوجيا.

لكنهم لا يمكن أن يشككوا أبدًا في مبدأ أن يكون لديهم حلم. مرة تلو الأخرى

قيل لي أن الإنسان بحاجة إلى حلم ليستمر في الحياة. أثناء المناقشة السابقة، ردد سيف صدى هذا الإحساس وأشار إلى أنه رغم كل المصاعب:

"الواحد لازم يحافظ على الأمل. ربنا سبحانه وتعالى بيقول لنا إن بعضنا هيروحوا الجنة، وبعضنا هيروحوا النار. ليه بيعمل كده سبحانه؟ لأنه خلقنا عشان يكون عندنا أمل. مفيش حياة من غير أمل ولا أحلام".

الأحلام مسألة متباينة. هي تعطينا الاتجاه العام، وتريحنا. تحركنا وتدفعنا للأمام، وتبقينا على قيد الحياة. قال عالم الأنثروبولوجيا النيوزيلاندي "مايكل جاكسون" (2011: xii) إن الإحساس "بأن في الحياة أكثر من الموجود لنا هنا والآن" ربما كان مكونًا أساسيًا وعامًّا من مكونات الحياة الهادفة عند الجميع. الأحلام والأمل هي فائض في الخيال الإنساني والطاقة الإنسانية تبقينا في سعي لأكثر مما نحتاجه لمجرد البقاء على قيد الحياة، والسعي لأمور أخرى أفضل من المتوفر. لكن لا يمكن للمرء أن يحلم بحرية وكيفما شاء. الأحلام بدورها أصبح المعروض منها قليل. وكما أنها تفتح مساحات تتجاوز الآن وهنا، فهي أيضًا توجهنا نحو غايات بعينها.

من السبل الممكنة للتفكير في هذه القوة المتباينة للأحلام أن نفصل بين قوة توجيهها للمسارات وإعادة إنتاجها لحدود ما هو متوقع من جانب، وقدرتها على فتح مسارات قد تتجاوز الحدود من جانب آخر.

الهجرة للعمل هي نموذج واضح على القوة المتباينة للأحلام. الغرض من الهجرة للعمل من وجهة نظر أغلب المهاجرين وعائلاتهم هي تحقيق حياة مألوفة محافظة لكن على مستوى أفضل مما كانت، يعني تحقيق الراحة المادية مع الحفاظ على شبكات عشرية ومجتمعية ثابتة وراسخة. ثم إن الهجرة تحركها أيضًا أحلام تتجاوز الإطار التقليدي للمتوقع والمطلوب. كما أوضح عبد الوهاب فيما يخص قيم العائلة العربية وما تظهره لنا، فإن تجربة العمل بالخارج كثيرًا ما تقدم أنواعًا من الأحلام ذات الملامح الأثرى والإلحاح

الأكبر. لكن الظروف الاستغلالية الخاصة بالهجرة للعمل بأجور متدنية تصعب من السعي بهمة لأي شيء بخلاف النموذج المحافظ من إعادة إنتاج المجتمع القائم. ربما يكون هذا الوضع أكثر اتزانًا في أوساط المهاجرين الذين يعملون في قطاعات رواتبها أفضل (انظر Vora 2013). لكن في أوساط المهاجرين متدني الأجور، فالتجربة الخاصة بالهجرة تضيق من نطاق الاحتمالات المُتخيلة التي يمكن أن يسعى وراءها الناس. كل أحلام السفر والحياة الكبيرة وتوسيع المرء لآفاقه وتجاوز ملل الحياة اليومية تفسح المجال أمام حياة مملة للغاية تحدث في إطار ضيق ويهيمن عليها هدفان أساسيان: ادخار بعض النقود للعودة والخطوبة أو الزواج، والتكيف مع الوضع في الخارج بالشكل الذي يسمح للمرء بالاحتفاظ بدرجة من الإنسانية.

هذه هي أول قوة من قوى الخيال المضمرة في العمل في المهجر: قوة الأحلام الملحة لدرجة أنها تصبح حتمية، وتجعل السعي وراء الأحلام الأخرى غير مرجح حتى إذا كانت سبل تحقيقها قائمة بالفعل على المستوى المادي. أن تكون مهاجرًا للعمل؛ فهذا يضيق من أفق المتوقع بحيث يقتصر على الفلوس والأشياء التقليدية التي يجب أن تشتريها الفلوس. لا يعني هذا أن المهاجرين لن يكتسبوا شيئاً مما وصفه عالم الأنثروبولوجيا الهندي آرجن أبادوراي (2013)"بالقدرة على الطموح" وما وصفه عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو (1984) برأس المال الاجتماعي، وما أصفه أنا بنطاق وملمس الأحلام. قطعًا سيكتسبون أشياء. الفلوس التي يربحها المهاجرون توفر القدرة على التصرف، والقدرة على أن يفعل المرء بحياته شيئاً ما. العمل والحياة بالخارج تمد المهاجر بقدرة تخيلية أكبر على هيئة مهارات وشبكات اجتماعية وتجارب عامة. لكن تلك القدرة مقتصرة كمًا من واقع نظام العمل القمعي، ومقتصرة من حيث النطاق جراء الالتزامات الاجتماعية المطلوبة لأجلها نقود الهجرة، ومقتصرة من حيث العمق جراء المنطق الكامن وراء الحسابات التي تصعب من السعي لأمور لا يمكن أن تشتريها الفلوس.

يجب ألا ننظر إلى طبيعة هذه القوة الأولى للخيال - التي تحد من المتاح - بصفتها شيء مُجبَر على أحصاب مثل تلك الأحلام غصبًا عنهم. على النقيض فحلم الزواج وتكوين الحياة مثلا يسعى إليه أغلب الشباب في الوطن العربي بحماس وإصرار. كما يجب ألا ننظر إليها بصفتها قوة تدميرية. على النقيض، فهي تشجع أعدادًا كبيرة من البشر في شتى أنحاء العالم على تركيز كل جهودهم على مشروعات بعينها. قوة الخيال الأولى - قوة الأحلام الحتمية - منتجة، ولكن إنتاجيتها تتحقق بأشكال متناقضة.

حلم السكن المريح يتحول إلى خرسانة وطوب أحمر، ومن ثم يغير وجه المدن والقرى وتركيبها الاجتماعي. على مدار أربعين عامًا، منذ ألغى أنور السادات القيود على السفر والعملة، ومهد الطريق للهجرة الدولية واسعة النطاق؛ تحولت القرى المصرية من مجتمعات ضيقة من البيوت المبنية بالطوب اللبن إلى شبه مدن فيها بنايات كبيرة وعالية من الخرسانة والطوب الأحمر تمتد وتسرح في الأراضي الزراعية المجاورة وتوفر مزيدًا من الاتصال بالعالم الأكبر وخصوصية أكثر في عزلة عن حياة القرية الجماعية (Weiland 1993; Abaza 2013; Schielke 2015).

حلم الزواج والإنجاب يحول نفسه إلى تجهيزات زواج مكلفة، وحفلات زفاف وأثاث وسلع معمرة. والأهم؛ يحول نفسه إلى حيوات أسرية هي بشكل محير تعزز من مثل الأسرة الأبوية البطريركية وتقوض منها في الوقت نفسه: تعزز، بسبب كيفية اعتماد أسر كاملة على فلوس الذكر المهاجر بما يدعم قيم الزواج المرتب ووصاية الذكر: وتقوضه، لأن فلوس الهجرة تعطي الأبناء استقلالية أكبر تجاه الآباء وتزيد من احتمال معيشة الأزواج والزوجات الجدد في شقة منفصلة عن العائلة الممتدة، ولأن الذكور المهاجرين يضطرون عادة للاستمرار في العمل بالخارج لتسديد نفقات المعيشة والتعليم والرعاية الصحية وهلم جرا، والنتيجة أنهم يعيشون شقًا كبيرًا من حياتهم بعيدًا عن البيت والأسرة التي ناضلوا لبنائها (Weiland 1993; Gruntz 2012a; Gruntz and Pages

El-Karoui 2013).

كما أن الهجرة للعمل تشكّل أفق خيال مجتمع بأسره. في أوساط الفقراء والمستورين على السواء، تصبح الهجرة مصدرًا للتفاؤل ومسارًا للنجاح الذي لا يضاهيه نجاح آخرين. لقد جعلت أساليب الحياة المقتبسة من الخليج متجذرة بعمق في أوساط الأثرياء والطبقات المتوسطة، وتدفع وتوجه بقوة أحلام ومطامح الفقراء (Elsheshtawy 2013; Adham 2014; Pelican 2014; Stephan-Emmrich and Mirzoev 2016). هناك أسباب معقولة للافتراض بأنها تسهم أيضًا في تحويل وتغيير أنماط التدين في شتى أنحاء العالم. انتشار حركات السلفية في أوساط المهاجرين المسلمين إلى الخليج تُظهر تشابهًا كبيرًا مع الصعود السريع للمسيحية الخمسينية(13) الجديدة في أوساط المسيحيين المنحدرين من ولاية كيرالا في الهند الذين هاجروا إلى الخليج للعمل (Zacharia 2016; Osella and Osella 2007; Stephan-Emmrich and Mirzoev 2016). لعل الخليج ليس المصدر الرئيسي لهذه التحولات الدينية، لكنه قطعًا جزءًا من ظرف عالمي ييسر حدوثها. ثمة شيء ما في تجربة وتوقعات حياة المهاجر توفر فرصة ذهبية للحركات الدينية الجديدة التي تصر الضوء على تأديب الذات والأخلاق، على النقاء والانغلاق في وجه الآخرين المختلفين دينيًا، وانشغال شديد بالثواب والخلاص بشكل يقارب في منطقه منطق الثروة والربح (Schielke 2015). (14)

أول قوة للخيال لا تقوم ببساطة بإعادة إنتاج ما هو مألوف وتقليدي. تبعاتها أكثر التباسًا وإثارة للحيرة، فهي تبث الاضطراب في المألوف والتقليدي لكن في الوقت نفسه تعزز الحلم التقليدي بإعادة إنتاج المألوف. من ثم تصبح الهجرة للعمل عملية اجتماعية متناقضة، تعزز القيم والمؤسسات الخاصة بالمجتمع المحافظ – العشرية، السكن العائلي في دار واحدة، الزواج التقليدي، الثروة، التدين – بشكل يؤدي في الوقت نفسه لتعطيل هذه القيم والمؤسسات ويدخل عليها طفرات تؤدي إلى تحولها تحولات جذرية تغيرها تمام التغيير.

من منطلق الرؤية المادية الماركسية، فإن هذه القوة قد تُسمى أيضًا علاقات الإنتاج، لكن النقطة التي أدفع باتجاهها هنا هي أن علاقات الإنتاج تكون دائمًا أيضًا علاقات خيال. حين يتعلق الأمر بكسب النقود لبناء بيت أو للتزوج وعندما يرتبط الأمر بالتبعات المحيرة لهذا الحلم، يصبح الفصل بين الاقتصاد والأخلاق والأحلام مستحيلًا. هذه الوحدة غير القابلة للانفصال هي ذاتها التي تجعل قوة الخيال الأولى قوية لهذه الدرجة، وقادرة على إنتاج وإعادة إنتاج واقع دامغ لا يمكن إنكاره. وفي الوقت نفسه فإن هذه القوة لطالما تعايشت وتجاورت مع قوة أخرى أضعف، هي الرغبة فيما هو أكثر من المعروف وما يمكن توقعه: الحلم بأن يكون لديك أحلام أخرى. (15)

13- الخمسينية طائفة مسيحية منشقة عن الطائفة البروتستانتية، تتميز بنظريتها من الولادة من جديد في المسيح (reborn in Christ)، وأسلوبها عن الصلاة مليء بالتعابير العاطفية، ورفضها لجميع الطوائف المسيحية الأخرى، وأخيرًا تقديرها للثروة وجمع المال. وفي بعض الكنائس الخمسينية – لكن ليس كلها – يؤمن أعضاء الجماعة أن الولادة الجديدة في المسيح تؤدي إلى ثروة مادية عظيمة في الدنيا إضافة إلى الخلاص في الآخرة. وتعتبر الخمسينية من أسرع الحركات الدينية انتشارًا في العالم في عصرنا.

14- يروج في مصر الزعم بأن السلفية وحركات الصحوة الإسلامية الأخرى جاءت إلى مصر من الخليج. هذا الزعم فيه قدر من المبالغة لأن الكثير من مؤسسي السلفية والتيارات الإسلامية المعاصرة الأخرى كانوا مصريين أو كانوا يعيشون في مصر في مطلع القرن العشرين، قبل موجة الهجرة إلى الخليج بكثير. لكن الهجرة إلى الخليج بلا شك كانت عاملاً محفزًا في التحول الديني الذي طرأ على المسلمين المصريين من التوجه من الصوفية صوب السلفية في فهم الإسلام في النصف الثاني من القرن العشرين، وساعد هذا التحول كثيرًا جهودُ السعودية في الترويج للمذهب الوهابي (أو المذهب التوحيدي كما يسميه أنصاره). لكن هناك تحول ديني مشابه في أوساط المسيحيين

المهاجرين إلى الخليج، ما يُلزمني بالدفع بأن الخليج عامل محفز لحركات النقاء والتطهر الدينية في مختلف الأديان لكنه ليس أصلها. . مدن الخليج، مثل مدن أخرى في شتى أنحاء العالم، تتسم بالاستهلاكية والاغتراب، وهي تنظر للمستقبل وفي الوقت نفسه تشهد أسلوب حياة محافظ تتمكن لحركات الصحوة الإسلامية والإصلاح الإنجيلي المسيحي معه من تقديم حلول روحانية مغرية (انظر أيضًا: Becker et al. 2014; Osella and Osella 2007). في السبعينيات كان الخليج قطعًا يقدم التجربة الروحية والاقتصادية المختلفة تمام الاختلاف عن القرية المصرية. لكن بالنسبة لمحادثيني من المصريين في قطر في عام 2009، لم تكن قطر مختلفة كثيرًا عن مصر من حيث الدين. على النقيض من الجيل الأقدم من المهاجرين المصريين في السبعينيات أو الثمانينيات الذين كانوا يتعرفون للمرة الأولى على الحركة السلفية أثناء هجرتهم؛ فإن الشباب الذين قابلتهم نشأوا في مجتمع مشبع بالسلفية والعودة للأصول الإسلامية، حيث التدين المشغول بالنقاء، التي جلبته السلفية، موجود ومهيمن كشكل راسخ من أشكال التدين، وحيث الالتزام بالشعائر الدينية أمر معتاد. بدلاً من أن تكون السلفية شيئاً يتعلموه في قطر، فإن الفهم والممارسة السلفية للدين كانت أمرًا نشأوا عليه.

15- اقتبست هذا التعبير من مختار سعد شحاته.

الفصل التاسع: أن تكون عندك أحلام أخرى

في هذا المقام، قد يكون من المريح تطوير استراتيجية تنموية نيوليبرالية للتمكين يمكن بموجبها للفقراء تغيير أوضاعهم للأفضل من خلال الجرأة على أن تكون لديهم أحلام أخرى، وأن يتعلموا ذلك، ربما بمساعدة إضافية من قرض صغير أو قرضين. يزيد هذا السيناريو إقناعًا وإصرارًا نظرًا للانتشار في دول الخليج للخطاب الليبيرالي الجديد الذي يحكي عن قدرة الخيال على تخطي التحديات (Kanna 2010; Wippel et al. 2014). المشكلة الوحيدة في هذه الاستراتيجية هي أنها نادرًا ما تفلح. بالنسبة لحراس الأمن المشتغلين في الدوحة، لم يقتصر الأمر على أن أشياء كثيرة مستحيلة التحقق، إنما أيضًا كان من الصعب الحلم بها.

من الصعب مطاردة أحلام أخرى. ليس من الضروري أو حتى من السهل أن يكون لها وجود أصلاً. الأفكار الجديدة تمامًا بالغة الندرة. الخيال بعيد كل البعد عن اللامحدودية. فهو يعتمد على المعارف القائمة وطرق الكلام والمجاز وأساليب التفكير والثقافة الجماهيرية السائدة والمشاعر الأخلاقية الكامنة والحدود التي تحاصر إدراك الممكن والقابل للتفكير فيه. أغلب الوقت لا يفكر الناس في أشياء من لا شيء، لكن يمزجون بين مختلف العناصر من هذا الرصيد القائم داخلهم و بينهم. بعض نتائج مثل ذلك النسيج قد تكون أصيلة ومبتكرة، لكن المواد أو العناصر المادية المطلوبة وإمكانات استثمار المرء لمهاراته في المزج بينها محدودة. وهي قطعًا ليست متوفرة بشكل مجاني بدون ثمن.

لكن توفيق داوم على الاجتهاد لتهيئة مساحة في حياته يرعى فيها ويلاحق بعض الأحلام الأخرى. نجاحه المحدود في تحقيق هذا يكشف عما يمكن لهذه القوة الثانية للخيال أن تنجزه وما لا يمكنها إنجازه.

توفيق قارئ نهم للأدب العالمي وشاعر باللغة العربية الفصحى. هو اشتراكي

ومعجب بالثورة الكوبية. هو من عدة أوجه شخص غير عادي، على الأقل بمعايير القرية المصرية. كافح كثيرًا حتى لا تقيد قطر أحلامه بحيث تقتصر على الأحلام التي يمكن لقطر أن تقدمها. (لعل هذا سبب آخر لاستهجانه البالغ لفلاجيو مول.) أثناء فترة العامين التي قضاها في قطر، كان حليفاه الأساسيان في هذا النضال هما الشعر والأدب.

أثناء وجوده في قطر، قرأ توفيق قدرًا كبيرًا من الأدب العربي والأدب المترجم إلى العربية، وكتب عدة قصائد تعبر عن إحساس بالاشتياق إلى الأحباء والقرية والوطن، وعن ليالي الأرق وعن الإحساس بالحصار المختلط بالبحث عن شيء حقيقي وموجود. بعض الأدب والشعر الذي قرأه سياسي جدًا. ذات مساء في المسكن عرفني بقصيدة تُدعى "كلمات سبارتكوس الأخيرة"، كتبها الشاعر المصري أمل دنقل عام 1962. هي استحضار قوي لمأساوية المقاومة، وبدت وكأنها جاءت في اللحظة المناسبة عندما تلى عليّ توفيق منها مقطعًا ونحن جالسان على السجادة في الحجرة المزدحمة بالناس:

لا تحلُموا بعالم سعيد

فخلف كل قيصر يموتُ: قيصر جديد !

وخلف كل ثائر يموتُ: أحزانٌ بلا جدوى

ودمعةٌ سدى !

(أمل دنقل 2005 : 91-97)

بدت هذه النغمة الحالكة المتشائمة للقصيدة مناسبة تمامًا في وقت كان المصريون فيه يتوقعون أن يخلف جمال مبارك والده في الرئاسة قريبًا. لكن بالنسبة لتوفيق كانت القصيدة لا تعبر عن الاستسلام، إنما عن المقاومة. أن يقرأها في ذلك المكان والزمان فهذا رفض للوضع القائم والإصرار على الحلم بعالم أسعد رغم استحالة هذا الحلم البائنة.

كانت نضالات توفيق القائمة واليومية في تلك اللحظة أقل درامية. كان محتارًا هل يمدد إقامته في قطر أم يعود إلى مصر. كان قد ادخر نقودًا قليلة جدّا، وفي البيت كان دخله القليل كموظف في الوحدة الصحية يكاد لا يغطي تكاليف المعيشة. من الصعب مقاومة الوعد براتب شهري قائم حتى لو كان المهاجر يعرف أنه بالاستمرار في هذه الوظيفة فقد تفوت فرصة أخرى أفضل. لكن المرتب حقيقة صلبة واقعة، في حين أن الفرص الأخرى ليست كذلك. لهذا السبب مكث أغلب الحراس لثلاث إلى خمس سنوات بدلاً عن سنتين، وبعضهم استمروا لسنوات طوال رغم تواضع الراتب.

عاد توفيق من قطر بعد انقضاء عامين بالضبط على انتقاله إليها، دون أن يمدد عقده. في مصر، أواخر عام 2010 أخبرني بأنه قرأ رواية الأديب البرازيلي باولو كويليو "الخيميائي" في ترجمتها العربية (كويليو 1996) عدة مرات أثناء إقامته في الدوحة. كانت هذه الرواية تحديدًا، كما أخبرني، هي التي منحته القدرة على العودة وتجريب حظه في مكان آخر.

"الخيميائي" حكاية حكمية ذات ترميز مباشر، هي قصة مسارات متداخلة تؤدي إلى تحقيق حلم، ودعوة لحياة من تحقيق الذات توجهها إمكانات الفرد الحقيقية والخاصة به. يمكن قراءة "الخيميائي" كرواية يوتوبية تخص عهد الليبيرالية الجديدة، مرتبطة تمام الارتباط بروح البحث الفردي عن النجاح. إذا قرأتها في هذا السياق فهي ليست عملاً راديكاليًا بالمرة. لكن بالنسبة لتوفيق، كانت قراءته راديكالية لأنها أمدته بأساس خيالي للتفكير في حياة لا تقتصر على دائرة الهجرة للفلوس المغلقة، حياة قد تكون مليئة بالمفاجآت. إذا كانت قراءة رواية قادرة على أن تساعد إنسانًا على اتخاذ خطوات ضد القوة الغالبة للبقاء فترة أخرى في مكانه، فهذا إذن يثير التساؤل حول قوة الخيال، ليس فحسب من حيث القدرة على خلق مسارات مغرية تصبح معها المسارات الأخرى مستحيلة، إنما أيضًا على خلق مسارات بديلة رغم استحالتها الظاهرة.

يمكن تصور السنوات التالية من حياة توفيق بصفتها بحث دائم عن توازن بين هاتين القوتين.

بعد عودته بقليل من قطر، راح توفيق يبحث عن عقد جديد للعمل بالخارج. سافر إلى القاهرة في 24 يناير 2011 لكي يقابل سمسار إلحاق عمالة بالخارج اليوم التالي. لم يحصل اجتماعه، إذ نشبت الثورة في 25 يناير وانضم توفيق إلى المتظاهرين في وسط البلد بالقاهرة. في الأسابيع والشهور التالية شارك مع مجموعة يسارية ثورية في قريته. نظموا حملات تنظيف واجتماعات سياسية ونجحوا في تكوين بعض الحركة والوعي السياسيين في القرية، لكنهم أخفقوا في إحداث تغيير على مستوى السياسة المحلية (Shehata and Schielke 2013; Schielke 2015). بعد أن كان عاملاً مُحبَطًا، تحول إلى ناشط سياسي مليء بالطاقة والقدرة، وكان أكثر إصرارًا وصبرًا من معظم رفاقه الذين أحسوا بسهولة بالإحباط وغلبتهم الانتكاسات. وربما كان الصبر والاحتمال وطول النفس من أهم مكتسبات هجرته.

فيما بعد، تحولت الانتكاسات إلى هزائم، والهزائم إلى عودة كاملة للنظام. لكن في ربيع 2011 لم نكن نعرف بهذا بعد. كانت لحظة يبدو معها أن الحلم بعالم سعيد قد يتحقق، وأن المقاومة قد تفيد وأن الأمور يمكن أن تتغير للأفضل. كانت اللحظة التي غادر فيها توفيق على ذمة عقد جديد لمدة سنتين كحارس أمن، وهذه المرة في أبي ظبي. ثورة أو لا ثورة، فراتبه في الوحدة الصحية كان هزيلاً، والاقتصاد راكد، وهو بحاجة للفلوس ليتزوج. ولكن هذه المرة كان هناك ما هو أكثر. كان يحب.

عندما عاد توفيق في صيف 2012 إلى مصر في إجازة زار والدي زرقاء في قرية مجاورة وطلب يدها من والدها. كان ارتباطهما مبنيًا على الحب المتبادل، وهو نوع من الارتباط مرغوب جدًا بين الشباب لكن يصعب تحقيقه في مصر: حلم الربط بين الحب والزواج.

في مصر، كما في أغلب أنحاء الوطن العربي، هناك ميراث ثقافي قوي للحب الرومانسي (Strohmenger 1996; إيمون كريل وصامولي شيلكه 2011; Menin 2012). لكن مصر أيضًا مجتمع أبوي محافظ حيث الفصل بين الجنسين وخضوع المرأة للرجل وسلطة الوالدين على أبنائهم. في أغلب الأحيان تكون قوة الحب أضعف بكثير من قوى الطبقة والفلوس والتحالفات العائلية والحساسيات الدينية الخاصة بالعلاقة بين الجنسين، ناهيك عن أن الحب في واقع الأمر كثيرًا ما يتخذ أشكالاً فيها الكثير من التسلط والعنف.

في ظل هذه الظروف القاسية، فإن الحلم بارتباط رومانسي وحياة مشتركة هو حلم جذاب، لكنه مع أنه حلم متوفر ومتاح اجتماعيًا، إلا أنه في الوقت نفسه يفتقر إلى الديناميات الذاتية لقوة الخيال الأولى، التي تدفع باتجاه اتحاد فلوس الهجرة بالزواج التقليدي. الحب حلم ممكن، بينما الزواج حلم لا مفر منه. الزواج من الإنسانة التي يحبها الشخص مسألة خطرة وصعبة، وفي بعض الأحيان ليست إلا سرابًا. وفلوس الهجرة تلعب دورًا متباينًا في هذه العملية (Gruntz 2008; Gruntz and Pages El-Karoui 2013).

رغم أن فلوس الهجرة منحت الشباب موقفًا أكثر استقلالية إزاء آبائهم فيما يخص الزواج، فإنها تبقى مرتبطة بشدة بالزيجات المُرتَّبة من قبل العائلات. المهاجرون العائدون يمكنهم تقديم ظروف زواج أفضل من الآخرين الذين يفتقرون لأموالهم، ما يجعل الحب يبدو خيارًا ضعيفًا مقارنة بالثروة والاستقرار الماديين. يمكن للشابات أن يرفضن عريسًا، لكن كلما زاد ثراء العريس أصبحت مقاومته أصعب. ولا يمكن للفتاة على الإطلاق تقريبًا أن تُلزم أبويها بعريس ضد إرادة أبويها. لكن فلوس الهجرة يمكن أن تكون أيضًا وسيلة لتحويل الارتباط الرومانسي إلى عرض زواج ناجح، وهناك الكثير من العشاق يعلقون آمالهم بهذا المسار. إلا أنه مسار خطر، لأن فترة الانتظار قد تطول، وفي تلك الأثناء قد يضطر أحد الطرفين التسليم بضغوط الأسرة وقبول الشركاء الأكثر إغراءً اقتصاديًا. فتكثر حكايات الرجال العائدين ليجدوا من أحبوهن

تزوجن، كما تكثر حكايات النساء اللاتي انتظرن في صبر ليعود الرجال من الخارج ويتبين أنهم قد تزوجوا بنات العم.

لكن رغم كل احتمالات الفشل؛ نجح توفيق وزرقاء في مسعاهما. في خريف عام 2013 احتفلا بزفافهما وانتقلا إلى شقة صغيرة في الطابقين الثاني والثالث من بيت أمه الذي تم تشطيبه وفرشه بالفلوس التي ربحها في أبي ظبي.

أخبرني توفيق بأن الفترة التي قضاها في أبي ظبي كانت أفضل من سفرية قطر. مع وجود هدف واضح -الزواج من زرقاء- كان إحساسه بالإحباط والارتباك أقل عن قطر. وبفضل خبرته في قطر، كان حريصًا على العثور على عقد في شركة تدفع ضعف المبلغ الذي كانت تدفع شركة قطر. لكن رغم ذلك كان الحال صعبًا. فمدخرات توفيق لا يمكن أن تحقق إلا القليل من أسلوب حياة الخليج. على النقيض من المهاجرين الأفضل حالاً الذين شيدوا بيوتًا جديدة على الأراضي الزراعية، فقد شيد طابقًا فوق سطح بيت أمه على مساحة 25 مترًا مربعًا في قلب القرية القديم. مع اقتصار ذات اليد، ربما كان الزواج ليتأجل أو حتى لا يحدث، لولا تصميم الطرفين وإصرارهما، ودعم والد زرقاء الذي اتخذ موقفًا كريمًا تجاه التزامات توفيق المادية أثناء الترتيب للزواج.

قدرة توفيق على تحويل الفلوس التي كسبها في أبي ظبي إلى زواج من المرأة التي أحبها والتي أحبته، كان انتصارًا واضحًا لقوة الأحلام الثانية، الأضعف، غير الواقعية، التي تتخطى ما هو متوقع. لكنه لم يكن انتصارًا من النوع القابل للدوام. أن يكون الإنسان فقيرًا وتعوزه الموارد اللازمة فهذا يعرضه للمشاكل من جميع الجوانب. بحسب اصطلاحات ميشيل دي سرتو (1984)، فمن الممكن لصاحب الموقف الضعيف أن يقدم على خطوات تكتيكية وينتهز الفرص مع ظهورها، لكن لا يمكنه احتلال قاعدة آمنة يصطنع من فوقها الاستراتيجيات. والزواج -بغض النظر عن دوافعه- يعني أن يتورط الزوجان في شبكة معقدة

من العلاقات الأسرية والاجتماعية، وبعضها داعم لهما وبعضها يثير التوتر والنزاعات. فيعني الزواج توقعات ومسؤوليات وأدوارًا للاضطلاع بها وفواتير واجبة السداد.

عندما قابلت توفيق وزرقاء بعد شهور في مطلع عام 2014 كانت الفرحة التي تشع من ليلة الزفاف قد استبدلت بمزاج قلق ومتجهم. خططا للإسهام معًا في الإنفاق على البيت من خلال عملهما. (16) لكن زرقاء لم تكن قد انتهت من دراستها بعد، وفي الفترة الراهنة كانت مسؤولية دخل الأسرة كلها تقع على عاتق توفيق. بعد الزواج مباشرة دخل في حيرة، هل يمكث في القرية مع زرقاء أم يحاول ادخار بعض النقود من خلال تمديد عقده في أبي ظبي؟ في النهاية لم يعد أمامه خيار. تم إلغاء عقده في أبي ظبي؛ لأن دولة الإمارات خشيت أن تصل الاضطرابات السياسية في مصر إليها، فألغت التصاريح الأمنية للموظفين المصريين في قطاع الأمن. أصبح عليه أن يدبر أموره في بلده.

16- هذه الخطة تختلف عن المُثل التقليدية عن الأسرة في مصر، حيث يجب على الزوج أن يكون المنفق الوحيد وأن يكون دخل الزوجة، إن وجد، ملكًا لها فقط. ولكن في واقع الأسر المصرية كثيرًا ما تسهم الزوجة بقدر كبير أو حتى بأغلب دخل الأسرة. إلا أن الواقع لا يقلل من قوة المُثل التقليدية القائمة، إنما يفرض ضغوطًا إضافية على الرجال إذا لم يتمكنوا من الإنفاق على الأسرة.

الفصل العاشر: سجن أكبر

ما يمكن لقوة الخيال الثانية الأضعف أن تنجزه مع توفر ظروف مواتية هو تغيير في الطريقة التي يلوح بها العالم للمرء، ومن ثم تغيير في المسارات العملية المحتملة للمرء. لكن بالنسبة لتوفيق، كانت الظروف أبعد ما تكون عن المواتية. كل خطوة للأمام يخطوها كانت تأتي بعدها معوقات جديدة رهيبة؛ إما تعيقه أو تدفعه في مسار آخر. على النقيض من "الخيميائي" لكويليو حيث النهاية السعيدة مع عودة البطل إلى بداية مساره وعثوره على الكنز الذي كان يبحث عنه في الرواية، ففي العالم الذي يعيش فيه توفيق لا توجد نهاية سعيدة، إنما صعود وهبوط مستمران في خضم كفاح لا ينتهي.

في جلسات عديدة، راح توفيق يفكر معي في تجربته مستعينًا في كلامه بصورة الأسوار.

في عام 2007 سألت توفيق هل سيعود إذا أمكنه مغادرة مصر. كان رده: "لو عرفت تخرج من سجن، هترجع له؟" بعد عامين في الدوحة، وأنا أدعوه إلى الغداء في مطعم صغير للأكل السوري ذات يوم، تذكرت محادثتنا وقتها وسألته كيف يرى الحال الآن. كان رده:

"طلع سجن أكبر. المشكلة هي إزاي تعرف حدود سجنك. ده سجن أسواره كتيرة. بعد ما تعدي سور هتلاقي سور تاني وراه. وكأنك في الأول جوّه الدايرة الضيقة، وبعدين لما تنط من فوق السور ده تلاقي نفسك في دايرة السجن اللي بعدها. لازم تعرف فين حدود سجنك عشان تعرف إزاي تنط كل الأسوار دي لغاية ما تعدي السور الأخير. لكن إزاي تعرف أنهي سور هو الأخير؟ هي دي المشكلة".

كان رد توفيق تأمل فلسفي في أحوال الناس الذين يحاولون العثور على مخارج في عالم حيث ما يعرض نفسه بصفته مخرجًا لا يؤدي إلا لساحة

السجن التالية. شغلتني هذه الصورة على مدار السنوات التالية. في ربيع 2014 جلسنا في صالة بيته الضيقة المفروشة حديثًا، وأخبرني عن تجربته مع أبي ظبي على مدار عامين ونصف العام. تذكرت ما قاله مرة أخرى. سألته كيف يرى الحال الآن بعد أن تزوج وعاد من عقد عمله الثاني في الخارج. هذه المرة قدّم فكرة مختلفة:

"في المنطقة اللي كنا شغالين فيها زرعوا غابات عبارة عن نخل وجناين، وفيها جمال وحيوانات تانية. الغابات حواليها سور. لما تمشي في طريق دايمًا هتلاقيه متحاوط بالزرع ده من كل الجوانب، فتلاقي نفسك ماشي بين سورين. السور مش هناك علشان الحيوانات متقدرش تخرج؛ هو هناك عشان متقدرش أنت تدخل!"

رسم توفيق خريطة ليوضح قوله: طريق، عليه سهم يوضح اتجاه سير المارة، ومزروعات على الجانبين تخدم بصفتها أسوارًا، وسهم آخر يُظهر اتجاه الحركة التي يحول دونها السور. بالتفكير في الأسوار كمجاز للقيود، استخدمها توفيق ليس فقط بصفتها شيء يعيقك، إنما أيضًا بصفتها شيء يوجهك على طريق مرسوم لك.

لكن ما إن انتهى توفيق من رسم الصورة، عرض صورة أخرى. . فكرة أخرى عن الأسوار:

"دايمًا فيه سور. الجواز كان سور كان لازم أنط من فوقه، ولما عديته دخلت على السور اللي بعده، اللي هو تربية العيال وإني أبني مستقبلهم. الحياة عبارة عن سلسلة من الأسوار اللي لازم الإنسان يعديها. دايمًا فيه سور لازم تنط من فوقه."

هذه المجازات المختلفة تُظهر جوانب مختلفة للقيود اللصيقة بما يمكن للمرء أن يحلم به وأن يسعى إليه ويحققه. أولاً هناك أسوار تخفي أسوارًا أخرى، وهو مجاز يعبر عن كيف أن جميع المطامح والخطط والخطابات ليس لها إلا مجال

معين وعاجلاً أم آجلاً تصل إلى حدوده. ثانيًا، هناك أسوار توجه المرء على مسار مرسوم من أجله، بما يذكرنا بأن الحدود المرسومة مثمرة بدورها وتؤدي للإنتاج: فهي تمكن المرء من اتخاذ مسار بعينه وعدم اتخاذ مسارات أخرى. وأخيرًا، فهناك السور الذي يجب على المرء أن يقفز من فوقه ويتخطاه، إشارة إلى أن الصراع –وربما أيضًا التعدي– جزء لا يتجزأ من الحياة الإنسانية.

اقترحت عالمة الأنثروبولوجيا الإيطالية باولا أبينانتي (Paola Abenante 2015) أنه عندما يتعرض الناس لحدود الخطابات التي تبني سلوكهم ومطامحهم، قد يشعرون بضرورة البحث عن "فتحات تأويلية"، أو سبل لإعادة التفكير وإعادة تشكيل الأسس الخطابية والأخلاقية التي تتبنى سلوكهم ومطامحهم. تجربة توفيق الخاصة بالهجرة قربته في أحيان كثيرة من مثل تلك الحدود، وفي بعض الأحيان راح يبحث عن فتحات من النوع الذي ذكرته أبينانتى. لكن تأمله للأسوار يشير إلى أنه بدلاً من ثنائية الحدود والفتحات، فهناك صراع مستمر مبنٍ على قيود مشجِّعة من جهة، وفتحات محدودة من جهة أخرى.

ذات مساء في نوفمبر 2014 بعد عام من زواجه وخمس سنوات من زيارتي له في الدوحة، خرجت للتمشية مع توفيق في القرية. قبل أن نلتقي كان قد أخبرني بأن عنده الكثير ليقوله لي، لكنه التزم الصمت.

جلسنا على مقهى بسيط قوامه مقاعد قديمة إلى جوار الترعة. قبل سنوات، كان الجانب الآخر للترعة يتكون من حقول ينمو فيها الأرز في الصيف والجرجير في الشتاء. الآن، اختفت الحقول تحت وطأة صف جديد من المباني في مختلف مراحل التشييد: بعضها ما زالت هيكل خرساني وطوب، وبعضها الآخر مسكون. بعد الشاي والسيجارة، بدأ توفيق يتكلم. قال إنه أصبح مضغوطًا لدرجة عدم قدرته على التعامل. هناك خلافات مع أقاربه. وهناك مشاكل في حمل زرقاء الأول أدى إلى إجهاض. واضطرت لإعادة العام الأخير في الجامعة ما أجبرها على ركوب المواصلات إلى مدينة كفر الشيخ بشكل

شبه يومي تقريبًا، ولا تقل مدة الرحلة في اتجاه واحد عن ساعتين. ثم، كما أضاف، هناك مشاكل الزواج برمتها. كل شيء يكلف فلوسًا. التعليم والمواصلات تكلف فلوسًا، والذهاب للطبيب يكلف فلوسًا، والتضخم جعل كل الأسعار تزيد سريعًا بما لا يمكن لراتبه كموظف أن يواكبه. (17) بصفته مفتش صحة لا يمكنه بيع خدمات خاصة كالتي يمكن للأطباء والمعلمين ورجال الشرطة بيعها. من ثم اضطر توفيق للحرص في إنفاقه لكل قرش: "لو اشتريت علبة سجاير وطلعت مكتومة، هتبقى تضحية لو اشتريت علبة جديدة". قال إنه بسبب كل هذه المخاوف والضغوط:

"مفتحتش كتاب ومكتبتش كلمة من يوم ما أتجوزت. عندي كومة كتب عايز أقراها، وعندي وقت فاضي كتير، لكن حاسس إن الوقت الفاضي الكتير ده مخليني معنديش وقت. والمشاكل مبتجيش فرادى عشان تقدر تحل كل مشكلة لوحدها. بتتكوم على بعضها وتخلق ضغط، وتخليك لا عارف تفكر ولا عارف تقرأ ولا تكتب".

لم ير سوى حلاً واحدًا: أن يسافر إلى الخليج في عقد جديد لعامين أو ثلاثة أعوام: "لو كنت شغال في الخليج كان زماني باعمل 5000 جنيه في الشهر، ومكنتش هتحصل كل الأزمات المادية دي". لكن هذه المرة كانت المسألة صعبة.

في عامي 2013 و2014 طردت دول الخليج مئات الآلاف من العمال المهاجرين في محاولة لزيادة عدد المواطنين في قوة العمل. (18) في الوقت نفسه كان الاقتصاد المصري يعاني من ركود أصعب من الذي جاء إثر الثورة في عام 2011. الآمال التي عقدها توفيق وآخرون على الثورة حل محلها الإحباط العميق. كل الأشياء التي بدت ممكنة أصبحت الآن أبعد من بُعدها سابقًا. الرؤية المرسومة لتغيير مصر التي ناضل لأجلها مع أصدقائه في ربيع 2011 همشتها المواجهة بين الحركات الإسلامية والنظام العسكري ثقيل اليد الذي لا يتقبل أي انتقاد. ولم يكن بوسع النظام حتى تحقيق الرفاه الاقتصادي الذي وعد به. ليس الأمر أنه لا توجد أموال في مصر. فبين عامي 2011 و2013 شهدت مصر طفرة

هائلة في الإنشاءات والبناء، يسر منها غياب الرقابة الحكومية، ما جعل بناء البيوت رخيصًا (لا حاجة لدفع رشاوى)، ودفع إليها أيضًا الإحساس بانعدام الأمان الذي جعل بناء البيوت يبدو الوسيلة الأكثر أمانًا لحماية المدخرات في هذا الظرف المضطرب. النتيجة أن كميات كبيرة من المدخرات الخاصة ضُخت في بناء بيوت في فترة قصيرة. ها هي البيوت منتصبة إذن، أغلبها في مرحلة نصف التشطيب، ولا توجد فلوس للاستثمارات في الإنتاج أو التجارة. في الوقت نفسه، اقترضت الدولة المصرية 64 مليار جنيه من مواطنيها عندما باعت إليهم أذون خزانة في مشروع تفريعة قناة السويس – وهو مشروع وطني ضخم قد يجلب أرباحًا بعد سنوات، وإن كان من المحتمل أن تكون الأرباح أقل من المتوقع، مع تقييده في الوقت نفسه لحجم رأس المال المتواجد للاستثمار المحلي (مدى مصر 2015).

من ثم فهناك طلب ضخم على العمل في الخارج. قد يأمل الناس من الطبقات الأكثر امتيازًا والقطاعات ذات المؤهلات الأفضل أن يدرسوا في أوروبا أو يحصلوا على وظائف بأجر جيد في الخليج. أما الفقراء مثل توفيق فخياراتهم أقل. قال لي توفيق إنه سافر إلى مدينة بني سويف قبل أسابيع، وهي رحلة قطع فيها مئات الكيلومترات، ليقدم على وظيفة في السعودية، من خلال عرض عمل مشكوك في أمره أصلاً. ذهب الكثيرون لذلك العرض لدرجة أن توفيق لم يتمكن حتى من دخول مكتب إلحاق العمالة بالخارج الذي قصده في بني سويف.

كان إحساس توفيق تجاه البيوت المشيدة على الجانب الآخر من الترعة مزدوجًا. على جانب، يراها مضيعة للاستثمارات أدت إلى ضخ الفلوس في البيوت بدلاً من خلق وظائف. وعلى الجانب الآخر، فهي دليل مادي على أنه قد تم ربح فلوس، وأن المكان الذي يمكنه أن يربح فيه الفلوس هو في الخارج. مع تأمل هذا الوضع، أعاد قول ما قاله لي قبل ثمانية أعوام: "في البلد دي، الاستثمار الوحيد اللي بينفع هو أنك تسافر".

كعامل مهاجر في قطر ثم في أبي ظبي راح توفيق يعمل لأجل شيء يكمن في المستقبل، هو حلم يريد تحقيقه. كان مكتئبًا ومحبطًا بسبب المشقة التي واجهها، وبسبب تجاوز بعض الأحلام لقدرته على تحقيقها في حين أن أحلامًا أخرى ضغطت عليه ولم تترك له خيارات. لكن وفي مواجهة كل المصاعب، ساعدته الهجرة في تحقيق بعض الأحلام. نجح في تحقيق الحلم الحتمي الذي سعى إليه: بناء حياة. كما ساعدته الهجرة في تحقيق حلم أقل احتمالاً أن يُحقَّق: الزواج من المرأة التي أحبها. مع مد طاقته إلى مسارات مثل الحب والعمل السياسي والأدب، تمكن من خلق بعض الفتحات وإن كانت ضئيلة، وبعض المسارات باتجاه أحلام أخرى وإن كانت حائرة. لكن الآن واجه الضغوط الحديدية لاقتصاد سياسي استغلالي مع المسؤوليات للرجل المتزوج. في هذه اللحظة، كيف يحلم بشيء إلا العثور على عقد جديد في الخليج؟

17- لإرضاء المواطنين، راحت الحكومات المصرية المتعاقبة ترفع من الرواتب، عدة مرات بين 2011 و2013، وقد زادت رواتب 2013 عن مستوى التضخم القائم (انظر مدى مصر 2013). لكن بحلول خريف 2014 ابتلع التضخم هذه الزيادة في المرتب.

18- يقول ديفيدسون (2014) بأن هذه الإجراءات وراءها محاولة من نظم الخليج الملكية لمنع الاضطرابات السياسية عن بلدانهم من خلال توفير وظائف أكثر للمواطنين.

الفصل الحادي عشرة: حتى ينتهي النفط

في أحد أيامي الأخيرة في الدوحة، عام 2009، صادفت زيد المشرف، أمام البنك، وهو يتحدث على الهاتف إلى ابنه في مصر. بعد المكالمة، بدا عليه التأثر. قال لي:

" أنا تعبت. أنا تعبت هنا. نفسي أرجع. لكن مقدرش أرجع، هنعيش منين؟ لازم أستحمل سنة كمان".

كان زيد وقتها في قطر منذ سبع سنوات. تزوج بالفلوس التي ربحها هناك، وكانت أسرته تعيش على دخله. عندما انتهيت من هذا الكتاب في ربيع 2015 كان ما زال في قطر. وقبله، كان والده الراحل قد عاش في قطر لعقود كعامل مهاجر.

تجربة الاغتراب المزدوج للعمال المهاجرين - اغتراب في العمل مقترن باغتراب عن الحياة التي يعملون بكد لبنائها - متعبة عاطفيًا. من ثم عادة ما يأمل العمال المهاجرون في العودة بأسرع ما يمكن، وأخبرني الكثيرون منهم أنهم سوف يعودون بعد عام واحد فقط. لكن بعد ذلك العام، يأتي عام آخر جديد.

في اليوم التالي قابلت زيد وعنتر، المشرف الآخر، عند البنك، وسألتهما إن كانا سيعودان قريبًا حقًا. أجابا: "إحنا قاعدين هنا حتى آخر ريال. لغاية ما النفط يخلص".

هذا وصف سليم للنتاج الأكثر مأساوية ربما للهجرة للعمل: الحاجة للاستمرار. محاولة المهاجر أن يحول أحلامه (سواء كانت تقليدية وواقعية أو خارجة عن المألوف وغير مرجحة التحقق) إلى واقع من خلال العمل في الخارج، تعني عمليًا أن على المهاجر تحمل حالة من الحياة أقل من الحقيقية لمدد طويلة من عمره، عام واحد إضافي في كل مرة، حتى ينتهي النفط.

في أوساط الطبقات الأدنى دخلاً (أي الأغلبية العظمى من الوظائف المتاحة في الخليج) تُحسب الرواتب بحيث تكون أكثر بقليل عما يمكن للعامل أن يكسبه في بلده. لهذا تحصل مختلف الجنسيات على أجور مختلفة. الأجور رديئة لكنها موجودة، وطالما استمر تدفقها فالعودة النهائية تعني العودة إلى اللاشيء "الرجوع لنقطة الصفر" كما قال عمرو وهو يفكر هل يمدد عقده أم يعود لبلده. لكن عاجلاً أو آجلاً يعود المهاجرون في الخليج إلى بلادهم، ونادرًا ما تكون عودة نهائية.

في مارس 2015 ذهبت مع توفيق لزيارة هلال، أحد زملائه السابقين في الشركة وكان يعيش في قرية قريبة من نزلة الريس. بعد خمس سنوات في قطر عاد هلال إلى مصر في أكتوبر 2013. قابلناه في محل لملابس السيدات. بمساعدة معارفه في قطر أصبح قادرًا على استيراد الملابس بشكل منتظم. فيحصل على شنطة ملابس مستوردة من حين إلى آخر، وهي العمود الفقري لتجارته. أخبرنا أن أهم مكسب من عمله في الخارج هو المكسب الاجتماعي: الناس الذين تعرف بهم، وكيف تعلم الاستفادة من معارفه. بفضل هؤلاء الذين قابلهم في قطر تمكن من كسب العيش. الشبكات والمعرفة المطلوبة للتجارة هي من أكثر التجارب فائدة واستدامة والتي من الممكن استفادتها في الخليج (انظر أيضًا Osella and Osella 2012; Pelican 2014). هذا المكسب الاجتماعي للهجرة هو مثال دال على الخيال المفتوح القادر على تحقيق الأمور وإنجازها: التمكن من المعرفة العملية التي تسمح للمرء بالحلم بطريقة قابلة للتحقق بالفعل. لكن هذا لا يكفي. هلال يحتل قاع الهرم العالمي للتجار. صلاته قليلة ومكاسبه زهيدة. الدخل القادم من المحل يكاد أن يكفي للإنفاق على أسرته. لذلك كان هلال يبحث عن عقد عمل جديد في الخارج. أخبره توفيق أن كل من كان يعمل معهم في قطر أو أبي ظبي يبحثون الآن عن عقد عمل جديد في الخارج.

لأن العمال لا يمكنهم الاستقرار في الخليج بشكل نهائي ودائم، فالهجرة إلى

الخليج تخلق اعتمادية على فلوس الهجرة المقترنة بحيوات متقطعة في المهجر. وهنا تكمن مأساة الهجرة للعمل بالنسبة للعمال متدني الأجور. ليس الفشل هو المشكلة. إذ أن الهجرة لو كانت فشلاً واضحًا؛ كان الناس ليكفوا عن الهجرة ويعودوا لبلادهم وينتهي الأمر، وكان الضغط على الهجرة في أذهان الناس سيكف. المشكلة الحقيقية في الهجرة للعمل هي النجاح الضئيل؛ أن يوفر المهاجر ما يكفي بالكاد ليستمر في العمل والحلم في حدود متواضعة، ولا توجد هنالك كنوز مخبوءة تحت الأشجار.

بالنسبة للأفراد تكون هذه في العادة مرحلة مؤقتة من حياتهم. وليست المشكلة مشكلة فردية. فكرة التحمل لعام آخر حتى ينتهي النفط هو ظرف قائم في مجتمعات بأسرها. في نطاق عائلة توفيق الممتدة، (19) فإن ثمانية من الرجال العشرة الذين ولدوا بين 1960 و1990 هاجروا للعمل في مرحلة من مراحل حياتهم (أخت توفيق هي السيدة الوحيدة في العائلة الممتدة – دون إحصاء زوجات الأبناء المهاجرين – التي عاشت أو عملت في الخارج). القرى مثل نزلة الريس، ببيوتها المشيدة ومصاهراتها المنعقدة بفلوس الهجرة، هي ضواحي الخليج، هي البيت لمن يضطرون للسفر والتحمل في أماكن أخرى لجعل ذلك البيت ممكنًا. إنه ظرف عالمي. ضواحي الخليج تمتد في شتى ربوع مصر ونيبال وكيرالا وسريلانكا والفلبين، بالضبط كما توجد قرى وبلدات مماثلة في شمال وغرب أفريقيا تعتمد على فلوس المهاجرين إلى غرب أوروبا، وقرى وبلدات مماثلة في وسط آسيا تعتمد على فلوس المهاجرين إلى روسيا، أو في أمريكا الوسطى وتعتمد على فلوس المهاجرين إلى الولايات المتحدة (انظر على سبيل المثال Weyland 1993; Osella and Osella 2007; Katy Gardner 1995).

بالتبعية لا يمكن فهم المجتمع المصري بمعزل عن الخليج ومواقع أخرى للهجرة المصرية. عائدات المهاجرين لا غنى عنها للاقتصاد المصري. والتيارات الدينية التي تروج لها نظم الخليج الملكية أثرت على طابع التدين لدى المسلمين

المصريين. أسلوب الحياة المميكنة للأثرياء وبنية المدن في الخليج أصبح النموذج المتبع للتخطيط العمراني وأساليب الحياة البرجوازية في مصر. يملك المستثمرون في الخليج قدرًا كبيرًا من الاقتصاد المصري وسوق العقارات. وأخيرًا وليس آخرا، فالدولة المصرية تعتمد كثيرًا على نظم الخليج الملكية، سواء اقتصاديًا أو سياسيًا. (20) هذا ظرف يُرجح ألا يتغير طالما استمر الاقتصاد السياسي لثراء النفط واستمرت الامتيازات الطبقية السلطوية والهجرة الاغترابية للعمل (انظر Hanieh 2011; تيموثي ميتشل 2014.).

يقول الجوغرافي الألماني كريستيان ستاينر إن بذخ مشروعات العقارات والعمران الخليجية الهايبر-واقعية هي استراتيجية لتحويل فلوس النفط إلى رأس مال رمزي. وسيلة لتحقيق الهيمنة من خلال المشروعات العملاقة المثيرة للعجب: "كلما زادت الفضاءات العمرانية هايبر-واقعية وأيقونية، زاد إسهامها في إضفاء الشرعية والاستقرار لهياكل سلطة وحُكم بعينها" (Steiner 2014:28). أتساءل أنا ما مدى استراتيجية هذه الاستراتيجية حقًا. مثلما يحدد المنطق الأخلاقي لبناء الحياة إطار نضال العمال المصريين لكسب الفلوس، فإن سعي دول الخليج لخلق فضاءات استعراضية للفُرجة spectacles لا يضاهيها شيء ربما كان منبعه العميق أحلام أخلاقية وأيديولوجية تحدد إطار سعي نخب الخليج للسيطرة والهيمنة. ربما المولات والأبراج هي مجرد الحد الأقصى لخيال نخب الخليج عما يمكن أن يفعلوا بثروتهم المهولة . مثلما الخيال ليس حرًا، فالاقتصاد ليس عقلانيًا. لكن على كل حال، فإن العالم الخيالي الهايبر-واقعي هو قطعًا نظام من الهيمنة والسيطرة له القدرة على خلق عوالم واقعية لا مفر منها في شتى أنحاء العالم. إنه مثال نموذجي على قدرة الخيال على إعادة إنتاج علاقات القوة القائمة. لكن تلك القوة لا تعتمد فحسب على عرض الفضاءات الاستعراضية للهايبر-واقعية فحسب، إنما أيضًا تعتمد على محاولات تغطية وإخفاء ظاهرة وجلية. (21) تعتمد قوة نظم الخليج الملكية بقدر كبير على قدرتها على تحقيق استمرارية جانبها الخفي، وهو تجربة لحياة ما أقل من الواقعية للعمال الذين يتحملون

حالة الغربة، من أجل تحقيق حياة جيدة تقليدية في بلدهم؛ حياة هي في الوقت نفسه تقوض من استقرارها الجهود اللازمة لجعلها واقعًا.

لا يوجد ما هو استثنائي في محاولات التغطية والإخفاء هذه قطعًا. الرفاه والحقوق والديمقراطية في غرب أوروبا على سبيل المثال تعتمد بدورها على تغطية وإخفاء جانبها المظلم. لكن الجانب المظلم الأوروبي يقع أغلبه خارج أراضي أوروبا، في مصانع بنغلادش التي تنتج الثياب للأسواق الأوروبية في ظروف تعد غير قانونية في أوروبا، إلى موت المهاجرين في الصحراء الليبية والبحر الأبيض المتوسط، من المستحقين للجوء السياسي إذا وصلوا للأراضي الأوروبية، وتعذيب وإخفاء الخصوم السياسيين في أفغانستان ممن كانت أوروبا لتحمي حقهم في حرية التعبير لو كانوا على أراضيها. أما الجانب الخفي للخليج، فهو على النقيض، واضح تمام الوضوح، على مرأى ومسمع من كل شخص يرغب في رؤيته، وهو خفي ببساطة لأن أغلب الناس ينظرون بعيدًا عنه.

الواجهة العامة لدول الخليج هي مزيج محيّر بين بعدين. من جانب يبدو الخليج كأنه عالم فانتازي من التقدم الرأسمالي الذي لا يضاهيه شيء على جانب، والذي يوجد في المستقبل وليس في الآن وهنا؛ ثم من جانب آخر يبدو الخليج كأنه مجتمع محافظ حريص على حماية مشاعره الدينية والمجتمعية، فيحرس التزامًا بماض مُبجل لكن بلا تاريخ. الجانب الخفي لهذه الواجهة - الجانب الذي يعيش فيه العمال المهاجرون - هو جانب محيّر بنفس الدرجة، لكنه ينطوي على إحساس مؤلم بالزمن، مراوغ يداوم الفرار من بين يدي المرء. الإحساس بالزمن temporality الخاص بالهجرة للعمل في الخليج في القطاعات متدنية الدخل هو دائرة تتكرر وتخلق أشياء واحتمالات جديدة لم تكن هنالك من قبل (على سبيل المثال: بيوت على الأراضي الزراعية، حياة عائلية عابرة للحدود، مسارات تعليمية ومهنية، حركات صحوة دينية)، وتعيد أيضًا إنتاج ما هو متوقع بشكل محيّر يحافظ على التوتر والاختلاف الدائمين بين ما هو قائم

وما يمكن أن يكون، مع التصعيب في الوقت نفسه من مطاردة أحلام تخرج من بنيان الهجرة للعمل والعلاقات الطبقية العالمية والعائلة الأبوية.

هذا إذن هو ما يفعله كون الإنسان مهاجرًا للعمل في الخليج بأحلامه: يوجه تلك الأحلام إلى دورة متكررة تعزز نفسها بنفسها، دورة من الطموح لأشياء يمكن لمسار الدورة المتكررة هذه أن يوفره، حتى عندما لا توفر تلك الدورة ما وعدت به. لكنها ليست دورة مغلقة بشكل صارم، إذ أنها تخلخل "العادي" الذي تخدمه، كما تخلق تجارب وتشحذ رغبات تتجاوز نطاق الدورة. تتوفر أحلام أخرى والمقاومة ممكنة، لكنها صعبة وغير مضمونة لأنها تفتقر للموارد المؤسسية ودينامية إعادة إنتاج الذات المتوفرة في دورة إنتاج الخيال. إنه ظرف عالمي يتشارك فيه ملايين الناس في شتى أنحاء العالم. لكن لعل الابتداع الأكثر شرًا لهذه التجربة المشتركة هي أنه بدلاً عن أن توحد الناس، فهي تفرقهم وتحرضهم على بعضهم البعض.

19- مع إحصاء الأطفال والأحفاد لاثنين من الأخوة المتزوجين لشقيقتين، دون إحصاء الأصهار.

20- بشكل يحاكي أطروحة فرانسوا بايارت (2000) عن الانفتاح – بمعنى التعويل على التبعية للخارج كمصدر للقوة والدخل – "extraversion" فإن السياسة الخارجية والمالية المصرية اعتمدت لمدد طويلة على العلاقات المتغيرة للتبعية إزاء الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وروسيا وغرب أوروبا ونظم الخليج الملكية. خلال العقد أو العقدين السابقين، أصبح تأثير نظم الخليج الملكية محسوسًا وبارزًا أكثر. الفترة الثورية منذ عام 2011 لم تؤد لانقطاع هذه الاعتمادية، إنما أسفرت عن تغير في التحالفات: حكومة الإخوان المسلمين قصيرة الأجل بعد ثورة 2011 اعتمد على دعم قطر. النظام الجديد الذي وصل إلى السلطة من خلال الثورة المضادة في 2013 يعتمد على دعم السعودية والإمارات. وقد أصبحت علاقات مصر بقطر متوترة.

21- تورط أيضًا بعض الباحثين في محاولات التغطية والإخفاء هذه، فقاموا مع تخليهم عن التفكير النقدي، بإعادة إنتاج سياسات الاستعراض والفرجة اللصيقة بنظم الخليج الملكية. انظر على سبيل المثال Schafenorth 2014.

الفصل الأخير

على امتداد هذا الكتاب، رحت أبحث عن وسيلة "غير ثنائية" للتفكير في "التصرف" في عالم ليس من صنع يد من يعيش فيه؛ عالم حيث بنية المجتمع وقدرة الفرد، حيث الاقتصاد والأخلاق، أو الخيال والواقع، لا تبدو متضادات ثنائية، إنما تجتمع لتكوين أجزاء ضرورية من سرد الحياة. بالنظر إلى الهجرة من وجهة نظر الأحلام، نرى العالم مكانًا حيث الاقتصاد غير عقلاني، والفانتازيا ليست حرة.

بالتبعية، فإن التفكير في الاقتصاد والخيال كعوامل تحد أو تمكّن المرء بشكل بسيط هو أمر قاصر عن رؤية كيف تجري الحياة حقًا. ما نراه ممكنًا يصبح إطارًا لأعمالنا، وما نصادفه في أثناء هذه الأعمال يصبح هيكلاً لتخيلنا لما هو ممكن. هناك أحلام أخرى ممكنة وربما تصبح قوية ونافذة، فقط إذا كانت قادرة على توليد دينامية تعزز ذاتها بذاتها من ديناميات إنتاج الخيال، تؤدي إلى نتائج مادية تصعّب من عدم النضال سعيًا وراء هذه الأحلام.

أثناء كتابتي لهذا الكتاب راح توفيق يحاول فهم نفس الواقع من خلال الشعر. لذلك كانت معاناته من احتجاب القدرة عن الكتابة عنه لأكثر من عام بعد أن تزوج مؤذية له. حرمته من القدرة على رؤية ما يتجاوز محنته الحالية: أن يحلم أحلامًا أخرى.

في يناير 2015 بعد أكثر من عام من عدم الكتابة وقراءة القليل، وجد الإلهام مرة أخرى. أول قصيدة يكتبها كانت قصيدة حب ذات أبعاد صوفية، هي تأمل للوحدة والاشتياق والاندماج. ثم في سلسلة من النصوص التي كتبها بعد ذلك مباشرة، غيّر من أسلوبه وموضوعه نحو الموعظة والحكمة الصوفيتين:

"النكوص الرقيق للشيخ الرفيق "

الجزء الأول

من كان له قلب فلينتبه !

قلوب الناس لها ألوان والألوان لها طعم وطاقة ورائحة الروح تسبق
استعملوا أرواحكم دائما . .
ولا تركنوا الي أجسادكم فالحواس لها حدودها المقيتة
اشربوا ، انظروا ، اقرأوا ، العبوا ، وأتموا حيواتكم بها . . لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون
استقبلوا الصباح بما لديه من وله بكم . . قفوا على أطراف أرواحكم وأنتم تعشقون . . خلوا الغناء صلاة والدعاء موسيقى واشربوا الأصوات لا تستمعوا ارتو ّا بصوت الليل وحسنوا علاقاتكم بالأشياء ، الكلاب ، الزهور ، المباني ، الوقت ، هواتفكم المحمولة ، أسر ّ تكم ، مكتباتكم ، أرواحكم أولى بالتقويم ، تسيدوا البراح المحيط بكم بلا غطرسة أو غرور ، بكل ما يمكن من إنشاد . . تسيد المحبين . . غلفوا بضياء روحكم ضعف حواسكم وارتقوا ، ابتعدوا عن الأساليب الخبرية ، عودوا إلى جادتكم الأولى ، امتحنوا أنفسكم بالحنين وبالهيام، صادقوا الشمس ، الرياح ، الماء ، والنار . . اتكأوا على الجهات الأربعة وما فوقها ، لا تخشوا السماء . . أحبوها . . اخرجوا إليها في كل وقت . . لا تعبدوا الله . . اعشقوه .. دعوه يلقي في أدمغتكم سراجه الوضاء . . لا تركبوا الخيل . . اتحدوا بظهورها وأنتم صائمون ، اشعروا برغبتها في الانطلاق وانطلقوا . . اسكروا بخمر الدلال إياكم والتعب . .
اختاروا الكلمات في مكانها الصحيح . . النور لا يصلح مكان الضياء ، الحب له دلالة غير العشق والصبابة ، الحسن غير الجمال ، القلب شيء والفؤاد آخر ، الشرب لايدل على الارتواء . . لا تقفوا على أعتاب الكلام .. الرغبة تفسد الأشواق
لا تتخلوا عن رونقكم الإلهي ، ولا تفقدوا اتزانكم بالتوتر المصطنع . . فلا علة في الكون غير فساد الأرواح
استقيموا يرحمكم الله

اهتم توفيق بشكل عام بالصوفية الإسلامية. بدأ يقرأ التراث الصوفي، من أعمال لأمثال جلال الدين الرومي ومحيي الدين بن العربي، وحضر موالد في القاهرة. ما جذب توفيق – وهو رجل ذو قناعات اشتراكية منذ زمن طويل – إلى الصوفية الإسلامية في هذه اللحظة بالذات؟ المؤكد أنه ليس الوحيد الذي نزع إلى هذا التوجه. تحديدًا في أوساط المثقفين واليساريين، شهد التصوف عودة مؤكدة في مصر بعد عام 2011. فسر أحد أصدقائه هذا الأمر بصفته مجرد هروب في لحظة هُزمت فيها الثورة، وحيث تكاد تختفي الحريات السياسية تمامًا، والأفق الاقتصادي بائس. أما توفيق نفسه فذكر لي أن هذا النص ساعده في فهم واقع الأشياء المتناقض.

للتصوف الإسلامي تاريخ من كونه غير سياسي أوبمعنى أدق: كونه مسالمًا للحكام، ولطالما رأتها الحكومات المصرية والغربية بصفتها أقل خطورة من الحركات الإسلامية ذات المرجعية السلفية الإصلاحية وتوجهها السياسي نحو النقاء والصراع. يدعم النظام المصري الحالي بنشاط الصوفية حتى وإن كان في الوقت نفسه يعتمد على الحلفاء السلفيين في مصر والخارج. في خضم ظروف الاستقطاب السياسي لمصر حيث المعارضة السياسية أصبحت بمثابة الفعل المُجرّم، أصبح المجال الديني في الوقت نفسه أكثر انفتاحًا على مختلف الرؤى المتعارضة والمتناقضة فيما بينها، لكن بالشرط أنها لا تعبر عن معارضة صريحة ضد النظام. من بين الرؤى الكثيرة المتوفرة، ربما كانت الصوفية هي الأقل نزوعًا للمواجهة، وربما كانت هي الرؤية الأكثر قبولاً سياسيًا واجتماعيًا، وهي بالفعل الأكثر "هروبية". لا ترتبط بها أغراض سياسية ظاهرة، ولا هي تحشد للإصلاح الأخلاقي للمجتمع. إنما توفر فضاءً للتجريب الروحاني، وربما أيضًا فضاءً موازيًا للحرية المتخيلة في واقع قمعي.

لكن الهروب ليس أمرًا سلبيًا فقط. الهروب حركة مراوغة بعيدًا عن الظروف المعروفة نحو مجهول. كتابة توفيق الحكمية بدعوتها إلى "النكوص" إلى ما وراء البناء المسلم به للغة والحواس، لا تضم خطة عمل معنية بالاقتصاد

السياسي لعصر النفط. إنما هي تعبير عن بحث عن سبيل مختلف لتخيل الوجود، وربما طريقة مختلفة للوجود. قبل ثماني سنوات ذكر توفيق خططه للهجرة بصفتها خطط للهروب: قفزة فوق أسوار السجن. فيما يلي، فهم طبيعة الأسوار بشكل أوضح. من منطلق هذا المسار، يمكن قراءة نصّ توفيق بطريقتين متناقضتين. في إحدى القراءات الممكنة، فالنصّ إيماءة للتقبل، وسيلة للتكيف مع عالم مزعج بالنكوص نحو إحساس صوفي بالحب الكلي. في قراءة أخرى، فهو تعبير عن كفاح مستمر ارتقى لمستوى روحاني، مع الاستمرار في البحث عن المزيد والمختلف عمّا يمكن لدورة الهجرة الأخلاقية/المالية أن توفره. وعلى كل، فليست تبعات هذه القراءة أو تلك معروفة على المدى المنظور.

ملحق نظري: دراسة الفلوس والأحلام

مثل المُعادل الإنجليزي dream فإن المصطلح العربي "حلم" يُستخدم للتعبير عن أحلام النوم وأحلام اليقظة والمطامح. في حين أن أحلام الليل لا تقيدها قوانين ومنطق عالم اليقظة (وإن فسر الحالمون أحلامهم من المنطلق أنها رؤىً بعثت من واقع أعلى، انظر Mittermaier 2011)، فإن أحلام الطموح تعني ضمنًا الإمكانية، والرغبة والاحتياج لتحقيق الحلم. "الحلم" بهذا المعنى اللاحق هو نظرية غير نخبوية أو أكاديمية للطموح aspiration. إنه يعني وجود شيء ثمة تطلع وسعي إليه، شيء تطارده وتلاحقه. العمال المهاجرون المصريون الشبان الذين تحدثت إليهم اتفقوا جميعًا على أنه بمجرد وجود حلم وبمجرد ملاحقته يمكنهم تحمل محنتهم الحالية. الحلم من هذا المنطلق هو موقع تتواجد فيه التحققات المحتملة potentialities (الإمكانيات)، وتكمن بالأساس في المستقبل وبشكل ثانوي في الترتيب المختلف للواقع. لكن ثمة اختلاف إذا تم الإقرار بالحلم ممكن التحقق، أو رؤي بصفته لن يتحقق أبدًا، أو إذا نُظر إليه بصفته لن يتحقق بعد لكن يجب أن يتحقق، وكلما تحقق أسرع كان أفضل. هذا التعدد في دلالات كلمة الحلم هو في رأيي مدخل جيد للتفكير في التباس "الخيال كممارسة اجتماعية" (Appadurai, 1996)، وهي التيمة التي تطورت متحولة إلى أرض خصبة للتفكير في التوقعات expectations والتجربة experience وتبعات الهجرة، في الأنثروبولوجيا على حالتها الراهنة.

منذ التسعينيات، أصبحت النظريات الأنثروبولوجية للخيال والتخيل جزءًا من متن البحث الأنثروبولوجي (Strauss 2006) فسمحت لنا بالنظر إلى ما هو مُفترض، ما هو متوقع، وما هو فانتازي بسبل مختلفة، تتراوح من تكوين المجتمعات والعملات (الفلوس والأمم كأمثلة أساسية على وقائع قوية هي بالأساس متخيلة: انظر Ho 2005; Anderson 1991) إلى كيف يمدنا الإعلام والأدب بنماذج ملحة، بعضها واعد وبعضها مروع، على حيواتنا الحميمية وتصرفاتنا السياسية على السواء (Starrett Starrett تحت الطبع; Masquelier

2009, صامولي شيلكه 2014). هذا الانتشار لمقاربات متشعبة ومتباعدة عن بعضها البعض تحت نفس العنوان؛ عنوان "الخيال"، يُلزمني بتحديد مناط تركيزي: مع اعتباري للأحلام نقطة بدء، فأنا أُعني بنوع الخيال المعترف به بشكل صريح بصفته حلم: الأدب والخيال السينمائي، أحلام النوم، أحلام اليقظة وخيالاتها، أحلام الطموح. هذه قوالب من الخيال - على النقيض من مفهومي الفلوس والأمم - يعد الاعتراف بكونها غير موجودة في الواقع المادي جزء لا يتجزأ من تعاطيها. لكنها جميعًا وبسبل مختلفة تثير سؤالاً عن كيف يمكن أن تتحقق، وكيف بتحققها تُمنح - أي الأحلام - أنواعًا مختلفة من السطوة المادية. على امتداد هذا الكتاب، ركزت على ما أراه سلطتين من سلطات هذا الإقرار أو الاعتراف بعدم "واقعية" الخيال: سلطة تؤكد وتوجه وتضيق مجال التصرف، والأخرى تشكك وتربك وتوسع مجال التصرف. العمل للهجرة من تلك الخبرات التي تشعر فيها بقوة بالاحتكاك بين هذه السلطة وتلك.

دراسة الهجرة من منطلق العلوم الاجتماعية لطالما هيمن عليها التركيز على التدفقات المالية والآثار الاقتصادية والاجتماعية على "المجتمعات المضيفة"، ولكن هذه الدراسة شهدت مؤخرًا تحولاً مطردًا نحو ما هو تخيلي، وما هو تجريبي وروحاني. بعض هذه البحوث تحدث في سياق الانعطاف في السياسة الأوروبية نحو التعامل مع المهاجرين بصفتهم أقليات دينية (خاصةً المسلمين من بينهم) وفي سياق الاستمرار في التركيز على الآثار الاجتماعية على "المجتمعات المضيفة". البحوث الأخرى الأكثر صلة بالهمّ الذي أضعه نصب عينيّ في هذا الكتاب، تبحث في توقعات الهجرة في الأماكن التي يهاجر الناس منها، والمسارات التي ينتهجها الناس وهم ينتقلون من مكان لآخر، وكيفية تعامل المهاجرين مع التبعات المتناقضة والمربكة في الأغلب لـ "مسار السفر" (Jackson 2009; Jackson 2014; Graw 2012; Graw and Schielke 2012; Lucht 2011). لقد أصبحت الهجرة في مناطق كثيرة من العالم المصدر الأقوى لهذا التفاؤل العالمي، وهو قوي - التفاؤل - لدرجة أن الحالمين بالهجرة

يترددون كثيرًا في التشكيك في جدواه حتى على ضوء تعاساته الكثيرة (Alpes 2012; Andrew Gardner 2012b). وكذلك هذا التفاؤل القائم بإصرار تبعاته الملتبسة الغامضة، يتطلب نظرة أوسع أكثر وجودية على الدوافع والمسارات، وأن تأخذ هذه النظرة في الاعتبار التكوين الثقافي للتوقعات الاجتماعية و"شُغل الخيال" (Masquelier 2009) المشمول في صوغ ونحت دروب التحسن المادي.

ولكن، عندما ننحي ما هو مالي وقانوني وسياسي عن بؤرة التركيز لصالح النظر أكثر إلى ما هو وجودي وتخيلي وطموحي (من الطموح)، يترصدنا أيضًا خطر تنحية بعض القضايا المركزية من وجهة نظر المهاجرين أنفسهم، عن بؤرة التركيز. الأهم بين هذه القضايا هي الفلوس. ما جدوى التصميم على الاعتبارات الوجودية والممارسة الاجتماعية للخيال بينما المهاجرون أنفسهم يصرون في أحيان كثيرة على أن الفلوس هي أهم ما في وضعهم الحالي؟ كيف نتحدث عن الهجرة كمسعى وجودي – والعديد من المهاجرين الذين قابلتهم يصرون أيضًا على أن هذا صحيح – ونعتبر في نفس الوقت مركزية الفلوس في هذا المسعى؟

إن دول الخليج العربي تتمتع بموقع متميز فيما يخص السعي وراء هذا السؤال. فهي قائمة على أكتاف العمال المهاجرين، وهي قوية في تكوين وهندسة العوالم الاجتماعية والتخيلات للأماكن التي ينحدر منها الشخص المهاجر إلى الخليج. تظهر البحوث الحالية عن الهجرة إلى الخليج حساسية ملحوظة لحيوات ودروب وشبكات المهاجرين إلى دول الخليج وداخلها، واستغلال العمال المهاجرين في الاقتصاد السياسي لدول النفط، ودور المهاجرين في مدن الخليج ومجتمعاته، وتكوين وإعادة تكوين معاش الأفراد في الأماكن التي ينحدر منها العمال المهاجرين (Davidson 2014; Elsheshtawy 2010; Andrew Gardner 2010; 2012a; 2012a; Ghannam 2002; Gruntz 2008; 2012b; Gruntz and Pagès El-Karoui 2013; Kamrava

and Babar 2012; Kanna 2013; Osella and Osella 2007; Pelican 2014; Wippel et al. 2014; Fernandez and de Regt 2014; Jain and Oommen 2016; Stephan-Emmrich and Mirzoev 2016; Hanieh 2011). البحوث الحالية حول الهجرة طورت أيضًا أسئلة مهمة حول الحياة المُعاشة في الشتات والمواطنة غير الرسمية في تناقضها مع اختزال المهاجرين إلى دورهم كمحض قوة عمل (انظر على سبيل المثال Vora 2013; Kanna 2010). لكن أعتقد أنه بالنسبة لأغلب العمال متدني الدخل على الأقل (وهذا الكتاب عنهم) يبقى العمل فئة ذات صلة قوية بالموضوع. لكن بدلاً من التفكير في المهاجرين ككتلة من العمالة المستغلة، أحاول تقديم حكاية للتجربة الشخصية كونها جزء من قوة العمل المهاجرة في الخليج. من ثم يحدوني الأمل أيضًا بأن أسهم في فهم تاريخ وحاضر العمال في الوطن العربي عبر حدود الدول الأمم (Jones 2015).

لكن أن تنظر إلى الخليج دون النظر إلى الأماكن التي ينحدر منها المهاجرون (والتي يعودون إليها في نهاية المطاف) فأنت إذن تنظر إلى نصف عملية الهجرة فقط. هذا بالطبع هو ما يحدث بالنسبة لكل المهاجرين، لكنه يظهر بشكل بارز في الخليج عن أي مكان آخر لأن نظام العمل في دول الخليج يفرض منطقًا دائريًا مؤقتًا على الهجرة (Hanieh 2011). مع استثناءات قليلة، فلا يمكن للعمال المهاجرين الاستقرار في دول الخليج بشكل نهائي. من ثم، فإن الهجرة إلى الخليج هي حركة دائرية عاجلاً أو آجلاً تشتمل على عودة، ما يؤدي إلى مفارقة الحضور الدائم لتعداد كبير من المهاجرين، على مدار أجيال، مع تواجد دائم قليل لأفراد أو عائلات ممتدة عبر الأجيال من المهاجرين في الخليج.

إذن هذا الكتاب هو عن مصر، بقدر ما هو عن قطر (أو الخليج بشكل عام). في واقع الأمر، بدأت فيه كمحاولة لفهم مصر. البحث الأنثروبولوجي لفهم مختلف الآمال والإحباطات في منطقة شمال مصر الريفية، أدركت معه أنه ليس من الممكن فهم مصر بشكل منفصل عن فهم الأماكن التي يهاجر المصريون إليها

للعمل. حركة الهجرة هذه ليست جديدة على مصر الريفية. على النقيض من الصورة السياحية التي طال تكرارها للقرية المصرية بصفتها مكان قديم متجذر لم يتغير منذ قرون أو آلاف السنين، فإن القرية المصرية متصلة للغاية برأس المال العالمي منذ القرن التاسع عشر. كانت الدولة الحديثة في القرن التاسع عشر بحاجة إلى سكان القرى بصفتهم أيدٍ عاملة لمشروعات البناء الكبرى وكجنود. نظام المزروعات شاسعة المساحات (العزب) الذي هيمن على الزراعة المصرية حتى الستينيات من القرن العشرين، كان يعتمد على التدفق الدائم لعمال التراحيل الموسميين، وفي الوقت الحالي أيضًا فإن قطاعات عديدة – لا سيما السياحة – تعتمد على التدفقات الموسمية للعمال، الذين يجيئون ويذهبون لكن لا يستقرون (Weyland 1993; Abaza 2013). في الوقت نفسه، فإن ملايين الناس انتقلوا من الريف إلى الحضر، وهي الحركة التي بدأت في مطلع القرن العشرين. وقد بدأت هجرة العمال الدولية من مصر في مطلع السبعينيات في سياق القضاء على القيود المفروضة على السفر والعملة وانفتاح الاقتصاد. رغم أن الهجرة الدولية إلى الخليج وأوروبا وأمريكا الشمالية كانت بسبل عدة استمرارًا لأنماط الهجرة السابقة، فقد اشتملت على اختلافات نوعية. يمكن للمهاجر الدولي أن يربح نقودًا أكثر بكثير من التي كانت متوفرة لفقراء القرية من قبل، وقد حوّلت هذه الفلوس من طابع مصر الريفية (في الواقع حولت هذه الفلوس من طابع مختلف ربوع مصر، انظر جلال أمين 1998; Weyland 1993; Hoofdar 1999; Ghannam 2002; Abaza 2013). حسنت كثيرًا من ظروف الحياة في الريف، وقلصت من التناقض بين المدن والقرى، ومنحت الشباب (عدد أقل بكثير من السيدات المصريات يهاجر دوليًا، وإن كانت أعداد المهاجرات في زيادة، انظر Gruntz 2008: 5-7) إطلالة جديدة على الحياة والعالم. لكنها خلقت أيضًا ضغوطًا جديدة، وأوجه لعدم المساواة، وصراعات.

الشكر الواجب

ساعدني في هذا البحث عدد كبير من الناس، لو لا مساعدتهم واقتراحاتهم ونقدهم لكان من المستحيل أن أكمل هذا الكتاب. أولهم عمال الشركة في الدوحة، وأهالي "نزلة الريس"، وكل من شاركني بآرائه وخبراته، ولم أستطيع ذكر أساميهم لحماية خصوصيتهم. الشكر واجب أيضًا لكل من دانيالا سفاروفسكي، عمرو خيري، مختار سعد شحاتة، محمد البعلي، كنوت جراف، أيمن عامر، جينيفر بيترسون، كيفن أيسنشتات، عائشتو مبودجي، مصطفى وافي، ريهام شبل، مانيا ستيفان، باولا أبينانته، لوسيل جرونتس، وبيتينا جريف. اعتذاري إلى كل من نسيت شكره. أخيرًا وليس آخرًا أشكر مركز دراسات الشرق المعاصر في برلين الذي وفر لي إمكانية التفرغ لهذا البحث وتكفل أيضًا تكاليف السفر وترجمة الكتاب إلى العربية.

المراجع

- Abaza, Mona. 2013. The Cotton Plantation Remembered: An Egyptian Family Story. Cairo: American University in Cairo Press.
- Abenante, Paola. 2015. "The ambiguity of virtue: Expectations and experiences of piety in the life of a young Egyptian woman." Ricerca Folklorica 69: 39-53.
- Adham, Khaled. 2014. "Modes of Urban Diffusion: Culture, Politics and the Impact of the Recent Urban Developments in the Arabian Gulf Cities." In: Wippel, Steffen, Katrin Bromber, Christian Steiner and Birgit Krawietz (eds.), Under Construction: Logics of Urbanism in the Gulf Region, Surrey: Ashgate, pp. 233-245.
- Alpes, Maybritt Jill. 2012. "Bushfalling: The making of migratory expectations in Anglophone Cameroon." In: Knut Graw and Samuli Schielke (eds.), The Global Horizon: Expectations of Migration in Africa and the Middle East. Leuven: Leuven University Press, pp. 43-58.

- جلال أمين. 1998. ماذا حدث للمصريين؟: تطور المجتمع المصري في نصف قرن 1945 – 1995. ألقاهرة: دار الشروق.

- Anderson, Benedict. 1991. Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism. London und New York
- Appadurai, Arjun. 2013. The Future as Cultural Fact: Essays on the

Global Condition. London: Verso.

- Baudrillard, Jean. 1993. Symbolic Exchange and Death. London: Sage.

- Bayart, Jean-Francois. 2000. “Africa in the World: A History of Extraversion. ” African Affairs vol. 99: pp. 217-267.

- Becker, Jochen. Katrin Klingan, Stephan Lanz, and Kathrin Wildner. 2014. Global Prayers: Contemporary Manifestations of the Religious in the City. Zürich: Lars Müller Publishers.

- Bourdieu, Pierre. 1984. Distinction: A Social Critique of the Judgement of Taste. London: Routledge.

- Cantini, Daniele and Lucille Gruntz. 2010. “Des nouveaux riches aux jeunes martyrs : les évolutions de la migration de travail égyptienne au prismede ses représentations médiatiques.” in: Iman Farag (ed.), Chroniques égyptiennes 2008. Cairo: CEDEJ, pp. 79-118.

- باولو كويلو. 1996. الخيميائي. ترجمة بهاء طاهر. القاهرة: دار الهلال.

- Davidson, Christopher M. 2014. “Expatriates and the Gulf Monarchies: Politics, Security and the Arab Spring. ” Asian Affairs 45, 2, 270–288, DOI:10. 1080/03068374. 2014. 907004

- ميشال دو سرتو. 2011. ابتكار الحياة اليومية: فنون الأداء العملي. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.

- أمل دنقل. 2005 (الإصدار الأول 1962). “ كلمان سبارتاكس الأخيرة.” الأعمال الكاملة. القاهرة: مكتبة المدبولي، ص 91-97.

- Elsheshtawy, Yasser. 2010. Dubai: Behind an Urban Spectacle. London: Routledge.

- Elsheshtawy, Yasser. 2013. “Resituating the Dubai Spectacle. ” In: Ahmed Kanna (ed.), The Superlative City: Dubai and the Urban Condition in the Early Twenty-First Century. Cambridge, MA. ; Harvard University Graduate School of Design, pp. 105-121.

- Fernandez, Bina and Marina de Regt (eds.). 2014. Migrant Domestic Workers in the Middle East: The Home and the World. London: Palgrave MacMillan.

- Foucault, Michel. 2007. Security, Territory, Population: Lectures at the Collège de France 1977–1978. Ed. Michel Senellart, trans. by Graham Burchell. London: Palgrave Macmillan.

- Gardner, Andrew. 2010. City of Strangers: Gulf Migration and the Indian Community in Bahrain. Ithaca, NY: Cornell Univ. Press

- Gardner, Andrew. 2012a. “Rumour and Myth in the labour camps of Qatar”. Anthropology Today 28, 6: 25- 28

- Gardner, Andrew. 2012b. “Why do they keep coming? Labor Migrants in the Gulf States. ” In: Mehran Kamrava and Zahra Babar (eds). Migrant Labor in the Persian Gulf. London: Hurst and New York: Columbia University Press.

- Gardner, Andrew. 2011. “Gulf Migration and the Family. ” Journal of Arabian Studies 1: 3- 25.

- Gardner, Katy. 1995. Global Migrants, Local Lives: Travel and Transformation in Rural Bangladesh. Oxford: Clarendon Press.

- Ghannam, Farha. 2002. Remaking the Modern: Space, Relocation,

and the Politics of Identity. Berkeley: University of California Press.

- Graw, Knut. 2012. “On the cause of migration: Being and nothingness in the African-European border zone. ” In: Knut Graw and Samuli Schielke (eds.), The Global Horizon: Expectations of Migration in Africa and the Middle East. Leuven: Leuven University Press, pp. 23-42.

- Graw, Knut and Samuli Schielke (eds.) 2012. The Global Horizon: Expectations of Migration in Africa and the Middle East. Leuven: Leuven University Press.

- Gruntz, Lucille. 2008. “La réintégration des émigrés égyptiens de retour au Caire: enjeux contemporains.” https://www. uclouvain. be/cps/ucl/doc/demo/documents/Gruntz. pdf

- Gruntz, Lucille, 2012a. Le Retour des citoyens: émigration de retour du Golfe et évolutions sociales au Cairo (1971- 2011). PhD thesis: EHESS, Paris.

- Gruntz, Lucille. 2012b. “La ‘révolution’ du Golfe au Caire? Émigration de travail vers les monarchies pétrolières et changements sociopolitiques en Égypte”. Migrations Societé vol. 24, nr. 143: 1-14.

- Gruntz, Lucille and Delphine Pagès El-Karoui. 2013. “Migration and family change in Egypt: A comparative approach to social remittances. ” Migration Letters vol. 10, nr. 1: 71- 79

- The Guardian. 2015. “Qatar delays vote on pledge to reform ‘abusive’ worker sponsorship system.” 23 June. http://www. theguardian. com/world/2015/jun/23/qatar-delays-vote-kafala-system-worker-sponsorship-human-rights

- Hanieh, Adam. 2011. Capitalism and Class in the Arab Gulf States.

London: Palgrave MacMillan.

- Ho, Karen. 2005. “Situating Global Capitalisms: A View from Wall Street Investment Banks.” Cultural Anthropology vol. 20, nr. 1: pp. 68-96.

- Hoofdar, Homa. 1999. Between Marriage and the Market: Intimate Politics and Survival in Cairo. Cairo: American University in Cairo Press.

- Human Rights Watch. 2008. “‘As If I Am Not Human’: Abuses against Asian Domestic Workers in Saudi Arabia. ” July 8, http://www. hrw. org/reports/2008/07/07/if-i-am-not-human

- Human Rights Watch. 2009. “‘The Island of Happiness’: Exploitation of Migrant Workers on Saadiyat Island, Abu Dhabi.” May 19, http://www. hrw. org/reports/2009/05/18/island-happiness-0

- Human Rights Watch. 2012. “Building a Better World Cup: Protecting Migrant Workers in Qatar Ahead of FIFA 2022.” June 12, http://www. hrw. org/reports/2012/06/12/building-better-world-cup

- Jackson, Michael. 2009. “The shock of the new: On migrant imaginaries and critical transitions. ” Ethnos 73, 1: 57–72.

- Jackson, Michael. 2013. The Wherewithal of Life: Ethics, Migration, and the Question of Well-Being. Berkeley: University of California Press.

- Jain, Prakash C. and Ginu Zacharia Oommen (eds.). 2016. South Asian Migration to Gulf Countries: History - Policies - Development. New Delhi: Routledge India.

- Jones, Kevin M. 2015. Unmaking the Middle Eastern working classes: labour and the politics of historiography. Social History 40,2:

145- 156, DOI: 10. 1080/03071022. 2015. 1010780.

- Kamrava, Mehran and Zahra Babar (eds). 2012. Migrant Labor in the Persian Gulf. London: Hurst and New York: Columbia University Press.

- Kanna, Ahmed. 2010. “Flexible Citizenship in Dubai: Neoliberal Subjectivity in the Emerging ‘City-Corporation”. Cultural Anthropology, 2010, Vol. 25(1), pp. 100- 129

- Kanna, Ahmed (ed.). 2013. The Superlative City: Dubai and the Urban Condition in the Early Twenty-First Century. Cambridge, MA. ; Harvard University Graduate School of Design.

- Karlsson, Johanna. 2014. “The truth about the luxury of Qatar Airways.” Expressen 3 February, http://www. expressen. de/nyheter/the-truth-about-the-luxury-of-qatar-airways

- إيمون كريل وصامولي شيلكه. 2011. “عيد الحب فى مصر: قراءة فى الجدل الديني والثقافى”. مراصد 7، ص 19-33

- Lucht, Hans. 2011. Darkness before Daybreak: African Migrants Living on the Margins in Southern Italy Today. Berkeley: University of California Press.

- Mada Masr. 2013. “CAPMAS: Average wages rose by 18. 7% in 2013. ” 28 May. http://www. madamasr. com/news/economy/capmas-average-wages-rose-187-2013

- مدى مصر. 2015. “«قناة السويس الجديدة». أساطير وحقائق.” ، 4 أغسطس. http://www. madamasr. com/ar/sections/economy/

%C2%AB%D9%82%D9%86%D8%A7%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%88%D9%8A%D8%B3-%D8%A7%D9%84%D8%AC%D8%AF%D9%8A%D8%AF%D8%A9%C2%BB-%D8%A3%D8%B3%D8%A7%D8%B7%D9%8A%D8%B1-%D9%88%D8%AD%D9%82%D8%A7%D8%A6%D9%82

- Masquelier, Adeline. 2009. “Lessons from Rubí: Love, Poverty, and the Educational Value of Televised Dramas in Niger.” In: Jennifer Cole and Lynn Thomas (eds), Love in Africa. Chicago: University of Chicago Press.
- Maurer, Bill. 2006. “The anthropology of money.” Annual Review of Anthropology vol. 35: pp. 15–36.
- Mednicof, David. 2013. “The Legal Regulation of Migrant Workers, Politics and Identity in Qatar and the UAE.” In: Kamrava, Mehran and Zahra Babar (eds). 2012. Migrant Labor in the Persian Gulf. London: Hurst and New York: Columbia University Press.
- Menin, Laura. 2012. Crafting Lives, Negotiating Ambivalence: Love, Friendship and Intimacy amongst Moroccan Young Women. PhD thesis, University of Milano-Bicocca.

- تيموثي ميتشل. 2014. ديمقراطية الكربون: السلطة السياسية في عصر النفط. ترجمة بشير السباعي وشريف يونس. القاهرة: المشروع القومي للترجمة.

- Mittermaier, Amira. 2011. Dreams That Matter: Egyptian Landscapes of the Imagination. Berkeley: University of California

Press.
- Motaparthy, Prianka. 2014. "'It's Like Jail Here': Watching the World Cup finals in the labor camps of Qatar. " Foreign Policy 14 July, http://foreignpolicy. com/2014/07/14/its-like-jail-here/
- Osella, Caroline and Filippo. 2012. "Migration, Networks and Connectedness Across the Indian Ocean. " In: Mehran Kamrava and Zahra Babar (eds.), Migrant Labour in the Persian Gulf. London: Hurst and New York: Columbia University Press.
- Osella, Filippo and Caroline. 2007. "'I am Gulf': the production of cosmopolitanism among the Koyas of Kozhikode, Kerala." In: Simpson, Edward and Kresse, Kai, (eds.), Struggling with history: Islam and cosmopolitanism in the Western Indian Ocean. London: Hurst.
- Pelican, Michaela. 2014. "Urban Lifeworlds of Cameroonian Migrants in Dubai." Urban Anthropology (UAS) vol. 43: pp. 225-309.
- Schafenort, Nadine (2014). "Off and Running: Qatar Brands for FIFA World Cup." In: Wippel, Steffen, Katrin Bromber, Christian Steiner and Birgit Krawietz (eds.), Under Construction: Logics of Urbanism in the Gulf Region, Surrey: Ashgate, pp. 71-87.

- صامولي شيلكه. 2014. هل يقدر الشعر على تغيير العالم؟ قراءة أمل دنقل في 2011. ترجمة عمرو خيري. مجلة الشعر (مصر) العدد 155، ص 82-89.
http://qira2at. wordpress. com/
2014/10/26/%D9%87%D9%84-%D9%8A%D9%82%D8%AF%D8%B1D8
%A7%D9%84%D8%B4%D8%B9%D8%B1-%D8%B9%D9%84%D9%89%D
8%AA%D8%BA%D9%8A%D9%8A%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%B9%
D8%A7%D9%84%D9%85%D8%9F-%D9%82%D8%B1%D8%A7%D8%A1
%D8

- Schielke, Samuli. 2015. Egypt in the Future Tense: Hope, Frustration and Ambivalence, Before and After 2011. Bloomington: Indiana University Press.

- Shehata, Mukhtar Saad and Samuli Schielke. 2013. Al-'Asima al-sirriya / The Secret Capital. Documentary film. Egypt. https://www. youtube. com/watch?v=V_mrTifpEI8

- Simmel, Georg. [1900] 1989. Philosophie des Geldes. Frankfurt: Suhrkamp.

- Starrett, Gregory. Forthcoming. "Fantasies of Corporal and Social Dissolution in Witchcraft and Bioterrorism Narratives. "

- Steiner, Christian. 2014. "Iconic Spaces, Symbolic Capital and the Political Economy of Urban Development in the Arab Gulf. " In: Wippel, Steffen, Katrin Bromber, Christian Steiner and Birgit Krawietz (eds.), Under Construction: Logics of Urbanism in the Gulf Region, Surrey: Ashgate, pp. 17-30.

- Stephan-Emmrich, Manja and Abdullah Mirzoev. 2016. "The manufacturing of Islamic lifestyles in Tajikistan through the prism of Dushanbe's bazars. " Central Asian Survey.

- Strauss, Claudia. 2006. "The Imaginary." Anthropological Theory vol. 6: pp. 322-344.

- Strohmenger, Steffen. 1996. Kairo: Gespräche über Liebe. Wuppertal: Peter Hammer/Trickster.

- Swarowsky, Daniela and Samuli Schielke. 2009. Messages from Paradise #1: Egypt-Austria: About the Permanent Longing for

Elsewhere. Documentary Film. The Netherlands: Stichting ZiM

- Swarowsky, Daniela. 2014. Messages from Paradise #2: Morocco-Netherlands. Documentary Film. The Netherlands: Stichting ZiM.

- أحمد خالد توفيق. 2008. يوتوبيا: رواية. القاهرة: ميريت.

- Vora, Neha. 2013. Impossible Citizens: Dubai's Indian Diaspora. Durham: Duke University Press.
- Weyland, Petra. 1993. Inside the Third World Village. London: Routledge 1993.
- Wippel, Steffen, Katrin Bromber, Christian Steiner and Birgit Krawietz (eds). 2014. Under Construction: Logics of Urbanism in the Gulf Region. Surrey: Ashgate